الفصل الثانى

أهل السنة وأثرهم السياسى فى مصر الفاطمية

المبحث الأول: أهل السنة والخلافة الفاطمية الشيعية

المبحث الثانى: أهل السنة ومنصب الوزارة

المبحث الثالث: أهل السنة ومنصب القضاء

المبحث الرابع: المبحث الرابع: أهل السنة وحكام الأقاليم

المبحث الخامس: النظام الإدارى ودور فقهاء السنة

المبحث السادس: دور الفقهاء السنة وقت الفتن والأزمات والجهاد

المبحث السابع: موقف أهل السنة من الحركة الصليبية فى بلاد الشام

المبحث الأول: أهل السنة والخلافة الفاطمية الشيعية

قامت الدولة الفاطمية على أساس نظرية الإمامة حسب قواعد المذهب الشيعى الإسماعيلى[1], والتى تقضى بالتفاف الأتباع حول الإمام الذى تجب طاعته وإحترامه, وتعتمد على توريث الإمامة للإبن الأكبر من الإمام القائم فى الإمامة.

كان هدف الفاطميين من استخدامهم كلمة إمامة هو إحاطة أنفسهم بهالة من التقديس، ومن ثم حاولا جهدهم تطويع النص القرآنى لإثبات إمامة على وبنيه من بعده، وبالتالى شرعية حكمهم، ولذا وجدناهم يروجون لذلك على نقوش عمائرهم بالربط بين النبى وعلى وذريته[2] .

وقد اتخذ الفاطميون ألقاباً تعكس مكانتهم وأحقيتهم فى حكم المسلمين كلقب "إمام" و"صاحب الزمان" و"السلطان الشريف", بالإضافة إلى لقب "أمير المؤمنين" الذى كان مرادفاً للقب الخليفة منذ عهد الخليفة "عمر بن الخطاب", كما أنهم حرصوا على إضافة نعوتهم الخاصة إلى إسم الله سبحانه وتعالى مثل "المعز لدين الله", و"العزيز بالله".. وما إلى ذلك[3].

لقد واجه أهل السنة فى مصر وخارجها الفاطميين بمعارضة تعبر عن حجم الكره والرفض لهم ولأفكارهم ومعتقداتهم، وهو ما رأيناه فى إظهارهم لحقيقة نسب الفاطميين الذين ينتسبون لغير على وفاطمة، وادعوا النسبة إليهما ترويجا لمشروعهم وأفكارهم[4].

ولعل تصنيف ابن مالك الذى عاش فى عصر المستنصر الفاطمى كتاباً بعنوان كشف أسرار الباطنية خير دليل على هذه المعارضة القوية من قبل فقهاء أهل السنة، وقد ضمن ابن

---

[1] المقريزى: إتعاظ الحنفا، تحقيق محمد حلمى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1416هـ /1996م، 345/3.

[2] فرج حسين فرج: النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر فى مصر، مكتبة الإسكندرية، 2007م، ص421.

[3] لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر: عبدالمنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط3، 1985م، ص51-77.

[4] ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، دار الفكر، القاهرة، 10/8 ؛ وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية، دار الغد العربى، القاهرة، 346/11 ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة 75/4، 230،231.

مالك كتابه حقيقة النسب اليهودى للفاطميين من طريق عبدالله بن ميمون الذى كان خادما لإسماعيل بن جعفر الصادق، وكان حريصا على هدم الشريعة المحمدية على حد قول ابن مالك[1].

لقد كان المعز لدين الله الفاطمى على دراية بحجم وقوة هذا الرفض المصرى لدولته الشيعية التى أسسها آباءه بالمغرب[2]، ومن ثم عندما أرسل جوهراً الصقلبى للسيطرة على مصر أطلق له العنان ليكتب أماناً للمصريين يظهر فيه التسامح وكل ما من شأنه أن يجعلهم وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء يغيرون وجهة نظرهم فى الفاطميين إلى أن يتمكن المعز من السيطرة على الأمور.

لذلك وجدنا جوهراً يضمن أمانه النصوص التالية: " نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفى الأذى ورفع المؤن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الأحوال وحياطة أهل البلد في ليلهم ونهارهم وحين تصرفهم في أوان ابتغاء معاشهم حتى لا تجري أمورهم إلا على ما لم شعثهم وأقام أودهم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم وألف كلمتهم على طاعة وليه ومولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمر به مولاه من إسقاط الرسوم الجائرة... وأن أجريكم في المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال.

وأن أتقدم في رم مساجدكم وتزيينها بالفر والإيقاد وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم وأدرها عليهم ولا أقطعها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإحالة على من يقبض منهم. وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين.... من أنكم ذكرتم وجوها

---

[1] أنظر: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة وكيفية مذهبهم وبيان اعتقادهم، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة الساعى، ص17.

[2] وليس أدل على انتشار الشك والريبة فى نفوس غالبية المصريين بشأن نسبة الفاطميين إلى على بن أبى طالب من أن بعض الأشراف اجتمعوا بالمعز عند وصوله مصر فسأله أحدهم عن نسبه فسل سيفه، فقال: "هذا نسبي " ثم نثر عليهم الذهب وقال: " وهذا حسبي" !! فأجاب الناس والأشراف " سمعنا وأطعنا". أنظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار الكتب العلمية، بيروت، 156/4.

التمستم ذكرها في كتاب أمانكم فذكرتها إجابة لكم وتطمينا لأنفسكم. وإلا فلم يكن لذكرها معنى ولا في نشرها فائدة إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء الفروض في العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبكم وفتواهم وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على أمر الله وكتابه وما نصه نبيه ﷺ في سنته واجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه.

ولكم علي أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم. وعلى أنه لا يعترض عليكم معترض ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب. وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ويذب عنكم ويمنع منكم فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهدا فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ويصل إليكم خيره وتتعرفون بركته وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

ولكم علي الوفاء بما التزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وغليظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلي وتسلمون علي وتكونون بين يدي إلى أن أعبر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخذلون ولياً لمولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين[1]".

ويتضح مما سبق الآتى:

---

[1] النويرى: نهاية الأرب، تحقيق محمد محمد أمين، محمد حلمى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1412هـ/1992م، 28 /123-126 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الدين الشيال، سلسلة الذخائر، القاهرة، 1/106،105.

أولا: أن الفقهاء والعلماء من أهل السنة بمصر لم يتخلفوا عن دورهم فى المجتمع والخاص بالحصول على أمان كامل من جوهر الصقلبى للمصريين جميعا على أرواحهم وأموالهم وأنفسهم بل ودينهم ومذهبهم، وهذا الدور يتضح صراحة فى قول المقريزى: " ثم اتفقوا على خروج أبي جعفر مسلم الحسيني وأبي إسماعيل الرسي ومعهما القاضي أبو طاهر وجماعة... ولم يتأخر عن تشييعهم قائد ولا كاتب ولا عالم ولا شاهد[1]...".

ثانيا: أن أهل السنة عموما وعلى رأسهم الفقهاء والعلماء كانوا على بصر وبصيرة بمذهب الفاطميين الإسماعيلى المعادى كل المعاداة لأهل السنة ومذاهبها، ومن ثم رأيناهم يشترطوا على جوهر عدم التدخل بشأن مذاهبهم، ولا ما يخص الصحابة والسلف الصالح وفقهاء الأمصار.

ثالثا: أن استجابة جوهر الصقلبى لمطالب المصريين جميعها ترجع إلى معرفته بطبيعة الرفض المصرى للمذهب الشيعى. لا سيما وأن دعاة الفاطميين فى مصر فشلوا فى تحقيق أية نجاحات ملموسة على أرض الواقع. كما أنه كان يخشى إن هو رفض مطالبهم أو بعضا منها أن يعجل بثورة ضده تفسد عليه مخططه ومخطط سيده المعز ([2]).

رابعا: رغم ما احتواه الأمان من نصوص تأمينية لأهل السنة وعهود ومواثيق بعدم تغيير مذهب المصريين فقد بدأ جوهر الصقلبى فى تنفيذ مخططه الذى جاء به وكان مختمرا فى ذهنه سلفا فنراه يغير فقه أهل السنة بشأن رؤية الهلال، ويهدد على ذلك[3]، وضرب السكة باسم الخليفة الشيعي (الفاطمي) بدلاً من اسم الخليفة العباسي، ومنع الناس من لبس السواد شعار العباسيين، ويعلن شعار الشيعة فى الآذان، وزيد في الخطبة على عادة الشيعة.. (اللّٰهم صل على محمد النبي المصطفى، وعلى على المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيرًا، اللّٰهم صل على الأئمة

---

[1] أنظر: إتعاظ الحنفا، 1/103.

[2] صبحى عبدالمنعم: تاريخ مصر السياسى والحضارى من الفتح العربى حتى نهاية عهد الأيوبيين، العربى للنشر والتوزيع، القاهرة، ص123.

[3] لمزيد من التفاصيل بشأن رؤية هلال رمضان فى العصر الفاطمى أنظر: محمد بهجت مختار: رؤية هلال شهر رمضان فى مصر الإسلامية، مكتبة الملك فيصل الإسلامية، 1990م، ص16 وما بعدها.

الراشدين، آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين)[1]. كل ذلك بعد الأمان بأسابيع قليلة، ثم يشرع فى بناء الجامع الأزهر سنة 359م ليكون خاصا بشعائر المذهب الشيعى الفاطمي.

وتجدر الإشارة إلى أن الإخشيدية والكافورية رفضوا الصلح والأمان وانتفضوا لمواجهة جيش جوهر تحت قيادة نحرير الشويزانى، وساعدهم على ذلك فى استنفار الناس معهم أحد فقهاء السنة ويدعى ابن شعبان البغدادى الذى قام بمسجد عمرو بن العاص يوم الجمعة وقبل الصلاة قائلا: "أيها الناس قد أظلكم من أخرب فارس وسبى أهلها، وذكر ما حل بأهل بلاد المغرب منه.."، ودعاهم إلى عدم قبول أمان جوهر فسمع الناس كلامه ورجعوا عما سألوه من الأمان[2].

لقد تسببت انتفاضة الناس ضد جوهر الصقى فى أن يتعرض أحد فقهاء السنة للحرج وهو القاضى أبو الطاهر محمد بن أحمد عندما ساله جوهر الصقلبى بخبث: ما تقول فيمن أراد العبور إلى مصر ليمضى إلى الجهاد لقتال الروم فمنع أليس له قتالهم ؟[3] عنى جوهر بنفسه وجنده أصحاب الجهاد الذين قدموا لقتال الروم، وعنى بالإخشيدية والكافورية أنهم من يمنعونه وجنده عن الجهاد.

ما كان من بد أمام القاضى إلا أن يفتى بجواز قتال جوهر للكافورية والإخشيدية ومن يعاونهم من الفقهاء والعلماء السنة.

ورغم ذلك فلم يتوقف العلماء والفقهاء السنة عن أداء دورهم بإتمام الأمان منعا من وقوع الاقتتال فراح ابن الفرات الوزير والفقيه والمحدث السنى[4] يوجه اللوم للكافورية

---

[1] ابن خلكان: وفيات الأعيات، 212/1 ؛ وانظر: المقريزى: مصدر سابق، 115/1-117؛ محمد الحويرى: مصر فى العصور الوسطى، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 1996م، ص146. وعن التغييرات التى أجراها الفاطميون لإظهار مذهبهم الشيعى وطمس المذهب السنى. أنظر: عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها فى مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، ط4، 1414هـ/1994م، ص270، 271.

[2] النويرى: نهاية الأرب، 126،127/28 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين فى العصر الفاطمى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2012م، ص58،59.

[3] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 108/1.

[4] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 40/2، 41 ؛ وانظر: السيوطى: حسن المحاضرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1430هـ/2009م، 271/1.

والإخشيدية على نقض الأمان بعد طلبه قائلا: " أنتم سألتم الشريف هذه المسألة فلم يقنع حتى أخذ معه أبا إسماعيل وهو رجل حسني وأخذ معه قاضي المسلمين وأخذ معه رجلا عباسيا. وسكت الشريف مسلم فلم يزد على أن قال: خار الله لكم.

وراح ابن الفرات يحادث الشريف مسلم سراً والإخشيدية والكافورية بكلام لعله يفلح فى ردهم عن القتال فقالوا كلهم: " ما بيننا وبين جوهر إلا السيف[1]".

لقد وقع الاقتتال بين الإخشيدية والكافورية من ناحية وجيش جوهر من ناحية أخرى، وهزم الإخشيديين والكافورية، وهنا ياتى دور الفقهاء والعلماء ثانية فقد ضج الناس وراحوا يطلبون من الشريف مسلم الحسينى السنى ومن الفقهاء والعلماء السنة أن يتدخلوا لطلب الأمان ثانية من جوهر، وهو ما تم بالفعل وأجابهم جوهر على الأمان الأول، وخرج الشريف أبو جعفر مسلم والوزير والفقيه والمحدث جعفر بن الفضل بن الفرات وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والشهود لملاقاة جوهر والتسليم عليه والدخول فى طاعته بموجب نص الأمان وشروطه[2].

ولتحقيق التمكين للمذهب الشيعى الإسماعيلى ومساندة الفاطميين وخدمة دعايتهم لمذهبهم وجدنا جوهراً يطيح بإمام وخطيب الجامع العتيق السنى عبدالسميع بن عمر العباسى ويعين نائبه هبة الله بن أحمد ليقوم بخطبة الجمعة الموافقة 20 شعبان 358هـ ويحقق الدعاية الفاطمية كاملة على منبر جامع عمرو بن العاص، وهو ما تم بالفعل إذ كان الخطيب هبة الله قد منح رقعة من قبل جوهر ليتلوها من أعلى المنبر إذا انتهى من خطبته وبلغ إلى الدعاء، وقد جاء فى نص الرقعة:

"اللّهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة وسليل العترة الهادية المهدية عبد الله الإمام معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين".

---

[1] المقريزى: مصدر سابق، 1/108.

[2] نفسه، 1/109-111.

اللّٰهم ارفع درجته وأعل كلمته وأوضح حجته واجمع الأمة على طاعته والقلوب على موالاته وصحبته واجعل الرشاد في موافقته وورثه مشارق الأرض ومغاربها وأحمده مبادىء الأمور وعواقبها فإنك تقول وقولك الحق: فقد امتعض لدينك ولما انتهك من حرمتك ودرس من الجهاد في سبيلك وانقطع من الحج إلى بيتك وزيارة قبر رسولك ﷺ فأعد للجهاد عدته وأخذ لكل خطب أهبته فسير الجيوش لنصرتك وأنفق الأموال في طاعتك وبذل المجهود في رضاك فارتدع الجاهل وقصر المتطاول وظهر الحق وزهق الباطل فانصر اللّٰهم في جيوشه التي سيرها وسراياه التي انتدبها لقتال المشركين وجهاد الملحدين والذب عن المسلمين وعمارة الثغور والحرم وإزالة الظلم والتهم والنهم وبسط العدل في الأمم.

اللّٰهم اجعل راياته عالية مشهورة وعساكره غالبة منصورة وأصلح به وعلى يديه واجعل لنا منك واقية علية[1]".

بدأ جوهر الصقلبى من هذا التوقيت يستقطب بعض فقهاء السنة من ذوى النفوس الضعيفة والذين عرفوا باسم فقهاء السلطان فى كل عصر وزمان، ومن ثم نراه بعد أيام من استقطاب خطيب الجمعة هبة الله بن أحمد، يتحول إلى فقيه آخر هو على بن أحمد الإشبيلى وينجح فى إقناعه بمذهبه فى رؤية الهلال وصلاة العيد، وبالفعل خرج الإشبيلى فصلى وخلفه جوهر وخطب خطبة العيد وجوهر يسمعه، كل ذلك وأهل مصر جميعا من الفقهاء والقضاة والعلماء والعوام من أهل السنة رفضوا أن يتابعوا الفقيه الإشبيلى فقيه السلطان ولا سيده جوهرا فى فعله القائم على المذهب الشيعى الإسماعيلى، ومن ثم رأيناهم يخرجون من الغد فى جامع عمرو بن العاص وخطب لهم فقيه هاشمى من أهل السنة، وأيدهم فى ذلك القاضى السنى أبو الطاهر محمد بن أحمد[2].

---

[1] النويرى: نهاية الأرب، 28/132،131 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، 1/115،114 ؛ حسن إبراهيم حسن، وطه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية ومؤسس الدولة الفاطمية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948م، ص242 وما بعدها.

[2] المقريزى: مصدر سابق، 1/116.

إن هذه المعارضة من أهل السنة جميعا فقهاءً وعلماءً وعامةً كانت أكبر دليل على الرفض السنى للتواجد الشيعى وبداية لصراعات وخلافات بل وثورات فى أحايين كثيرة من قبل أهل السنة بتحريك من الفقهاء ضد السلطة الفاطمية الشيعية.

لم يتوقف جوهر الصقلبى فى استقطاب وجذب الفقهاء السنة إلى جانبه بكل السبل وإن بقوا على مذهبهم، فهدفه الأول هو تحقيق الدعاية للخلافة الفاطمية ولمذهبها الشيعى الإسماعيلى، وقد وجد ضالته فى فقهاء السلطان من السنة لتحقيق هدفه. لذا رأينا بعد أشهر قليلة من استبدال جوهر لعبدالسميع بن عمر خطيب جامع عمرو بن العاص بنائبه هبة الله بن أحمد، رأينا الفقيه والخطيب عبدالسميع يخضع لمطالب جوهر، ومن ثم وجدناه خطيبا للجمعة الموافقة 8 جمادى الأولى سنة 359هـ فى جامع أحمد بن طولون والذى أذن فيه المؤذنون بحى على خير العمل، ويبدو أن الفقيه والخطيب عبدالسميع بن عمر العباسى السنى كان فى حالة من الحيرة والتردد بشأن المضى قدما فى قبول عرض جوهر الصقلبى وأن يكون وسيلة لنشر المذهب الشيعى والتمكين للخلافة الفاطمية، ومن ثم بدا التوتر عليه فى صلاته فأخطا فى الركعة الثانية فانحط إلى السجود ونسى الركوع، مما أحدث بلبلة بين الناس وتحدث بعضهم وهو قاضى عسكر جوهر قائلا: " بطلت الصلاة أعد ظهرا أربعا "، كذلك نسى ما كان قد تلقنه قبل صعود المنبر من قراءة البسملة جهراً فى كل سورة وكذا فى الخطبة، بل ومن شدة توتره ترك الدعاء للمعز لدين الله الفاطمى ودعا لجوهر الصقلبى، وهى الأمور التى أنكرها عليه جوهر عقب الانتهاء من الصلاة فوعد بالانضباط والامتثال فى الخطبة المقبلة وهو ما تم بالفعل[1].

ويبدو أن الفقيه والخطيب عبدالسميع بن عمر العباسى السنى أتقن دوره كفقيه للسلطان، ومن ثم رأيناه فى إحدى جمع شهر جمادى الأولى من العام 360هـ يوسد إليه قراءة منشور المعز لدين الله الفاطمى والخاص بقتل أحد ملوك المغرب وزعماء زناتة[2].

---

[1] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 1/121،120 ؛ وانظر: حسن إبراهيم حسن، وطه أحمد شرف: مرجع سابق، ص244 وما بعدها.

[2] المقريزى: مصدر سابق، 1/128.

لقد حرص جوهر أن يحيط نفسه بجماعة من فقهاء السلطان من أهل السنة الذين قبلوا الخنوع والضعف فكانوا دوما ما يظهرون فى مجلس جوهر[1]، ولقد آتت جهود جوهر ثمارها عندما كان فقهاء السنة والقاضى أبو الطاهر فى استقبال المعز حال مقدمه إلى مصر. إذ خرجوا إلى الجيزة وأقاموا بها أربعين يوما ينتظرون حتى أتاهم الكتاب بوصول المعز إلى برقة فانطلق القاضى ومن معه من الفقهاء، وكان الاستقبال فى الإسكندرية، ولما وصل المعز لقصره بالقاهرة خرج فقهاء السلطان من أهل السنة لتهنئته[2].

لقد أظهر جوهر الصقلبى نواياه الحقيقية وأوضح أن أمانه ليس إلا حبرا على ورق، وأن عهوده ومواثيقه ما هى إلا كلام فحسب وأما الحقيقة فستتمثل فى أفعاله ومحاولاته ومخططاته القائمة على التمكين لخلافته الفاطمية ولمذهبه الشيعى الإسماعيلى، ومن ثم رأينا جوهرا ينكر على القاضى أبى الطاهر رؤيته للهلال وهدده على ذلك[3]، وهو ما يعد خرقا جسيماً للأمان الذى أنفنا الحديث عنه.

مضى جوهر فى تنفيذ مخططه ففى ذى القعدة من العام 358هـ - أى بعد أسابيع قليلة من تهديده للقاضى السنى بشأن رؤية الهلال- أمر بأن يزاد فى الخطبة دعاء الشيعة[4] والذى سبقت الإشارة إليه. وأزال السواد شعار العباسيين، ومنع من قراءة سبح اسم ربك الأعلى فى صلاة الجمعة، وأزال التكبير بعد صلاة الجمعة، ولم يدع عملا إلا جعل فيه مغربيا شيعيا شريكا لمن فيه من المصريين السنة[5]، وهكذا فقد أحدث جوهر تغييرات جذرية فى شئون مصر الدينية والمذهبية، وكلها كانت تهدف إلى القضاء على المذهب السنى، والتمكين للمذهب الشيعى الإسماعيلى.

---

(1) نفسه، 132/1.

(2) نفسه، 133/1 -135 ؛ وانظر: السيوطى: حسن المحاضرة، 463/1.

(3) الكندى: كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص582 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، 116/1 ؛ حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف: المعز لدين الله، ص194 وما بعدها.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 212/1.

(5) المقريزى: مصدر سابق، 119/1.

وللتأكيد على أن مشروع جوهر كان فى ذهنه سلفا نجد أن المعز لدين الله الفاطمى عندما دخل مصر سنة 362هـ وأدركه أول عيد فطر بها خرج وصلى وخطب بالناس معتمدا على مذهبه الشيعى الإسماعيلى، وهدد كل من بلغه أنه أتم الصيام عملا بالرؤية[1]. بل رأينا التنكيل البشع بمن يخالف الأوامر الشيعية. إذ أمروا بسلخ أحد فقهاء السنة وهو محمد بن عبدالسميع إمام جامع القرافة، وانصرف الناس من الجامع دون أن يصلوا الجمعة[2].

تسببت هذه الإجراءات التى قام بها جوهر إلى جانب تغييرات فى العملة أضرت بالاقتصاد فى استنفار همم أهل السنة عموما بدعم من الفقهاء والعلماء، ومن ثم رأينا أهل تنيس يثوروا فى وجه واليهم وقاموا بقتل جماعة من أتباع الفاطميين منهم الإمام فى القبلة وذلك فى شوال من العام 360هـ، كذلك كتب فقهاء السنة رقاعا تحذر من جوهر ومخططاته وعلقوها بجامع عمرو بن العاص، وانتشر الأمر بين الناس مما دفع جوهر إلى أن جمع بعض الفقهاء والمسئولين ووبخهم فاضطروا إلى الاعتذار[3].

لم يتوقف أهل السنة من الفقهاء وغيرهم عن التعبير عن معارضتهم للخلافة الفاطمية ومذهبها الشيعى القائم على سب أصحاب النبى، ومن ثم استغل أهل السنة حادثة وقعت فى رمضان من عام 360هـ ومفادها أن أمرأة عجوز عمياء كانت تنشد فى حب الصحابة على الطريق فقبض عليها وحبست. الأمر الذى اضطر جماعة من الرعية يخرجون فى الشوارع ينادوا بذكر الصحابة ويصيحوا بالقول: "معاوية خال المؤمنين، وخال على"، وارتفع الصياح حتى أرق جوهر نفسه فأرسل من ينادى فى جامع عمرو بن العاص: "أيها الناس: أقلوا القول، ودعوا الفضول، فإننا حبسنا العجوز صيانة لها، فلا ينطقن أحد إلا حلت عليه العقوبة الموجعة"، ولكنه فى داخله وعى الدرس وعلم أن أهل السنة تحت قيادة فقهائهم لن يسمحوا بمس الثوابت، ومن ثم أمر بإطلاق سراح المرأة العجوز فورا رغم وعيده السابق[4].

---

[1] نفسه، 138/1.

[2] نفسه، 143/1.

[3] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 129/1 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين، ص61.

[4] المقريزى: مصدر سابق، 131/1.

لقد كان لحادثة المرأة العجوز التى استغلها الفقهاء بالهتاف لمعاوية نكاية فى الشيعة الإسماعيلية الذين يبغضوه ويكفرونه أثر كبير فى المجتمع فما من أمر يقع لأهل السنة من قبل رؤسائهم الشيعة إلا ويخرج الناس يهتفوف لمعاوية، ومن ذلك ما وقع فى ربيع الأول من العام 362هـ حيث عزل المحتسب جماعة من الصيارفة السنة فشغب طائفة منهم وصاحوا: " معاوية خال على بن أبى طالب " وارتفعت الأصوات إلى الحد الذى كاد أن يدفع جوهر لحرق رحبة الصيارفة لولا خوفه على الجامع على حد تعبير المقريزى[1].

كذلك لما خرجت جماعة من الشيعة فى يوم عاشوراء عند قبر كلثم بنت محمد بن جعفر الصادق، وقبر السيدة نفيسة، وخرج معهم جماعة من فرسان المغاربة ورجالهم بالنياحة والبكاء على الحسين وتعدوا على البائعين من أهل السنة انتحى لهم جماعة من أهل السنة ولولا تدخل ابن عمار لوقعت الفتنة والاقتتال بين السنة والشيعة[2].

بل إن فقهاء السنة خارج مصر رفعوا لواء المعارضة بفتاوى صارمة وتحريض على قتال الفاطميين الشيعة ومن ذلك قول الفقيه أبى بكر محمد بن أحمد النابلسى إن قتالهم واجب، ولو أن معى عشرة أسهم لرميت تسعة فى المغاربة (يعنى الفاطميين) وواحدا فى الروم[3]، وقد تفنن الفاطميين فى تعذيب من يعارضهم فقد سلخوا ابن النابلسى وشقوا بطنه وحشوا جثته تبنا ونصبت على خشبة يراها الناس ترهيبا وإرهابا لأهل السنة[4]. وقد امتد ميدان المعارضة إلى شعراء أهل السنة حيث وجدنا أحدهم فى عهد الحافظ ينشد قصيدة يذم فيها حكام مصر الفاطميين، ويذكر سوء اعتقادهم، ويصف الحافظ وابنيه وأباه وجده بالخمس المناحيس، ويدعو الشعب لعدم الرضا عنهم مهما فعلوا[5].

ويتضح دور فقهاء السنة فى التشهير بالخلافة الفاطمية ونسبها المزعوم من خلال كتابتهم رقعة فيها أبيات من الشعر علقت على المنبر حال صعود العزيز بالله احتوت على التالى:

---

(1) أنظر: إتعاظ الحنفا، 132/1 ؛ محمود خلف: ثورات المصريين، ص67.

(2) نفسه، 145/1،146.

(3) نفسه، 210/1 ؛ وانظر: السيوطى: حسن المحاضرة، 397/1.

(4) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 211/1.

(5) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 163/3.

إنا سمعنا نسبا منكرا ... يتلى على المنبر في الجمع

إن كنت فيما تدعي صادقا ... فاذكر أبا بعد الأب السابع

وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع

أو فدع الأنساب مستورة ... وادخل بنا فى النسب الواسع

فإن أنساب بني هاشم ... يقصر عنها طمع الطامع[1].

ويبدو أن العزيز استشعر قوة الفقهاء ومحاولتهم الإيقاع به أمام الناس فلم يتكلم بكلمة[2].

لم يتوقف الفقهاء عند هذا الحد بل كتبوا على رقعة أخرى شعرا يصف حالة الجور والظلم والكفر الذى عليه حكام الفاطميين الذين ادعوا علم الغيب وعلقت الرقعة على المنبر يوم الجمعة ليراها العزيز بالله حال صعوده وفيها:

بالظلم والجور قد رضينا ... وليس بالكفر والحماقة

إن كنت أعطيت علم الغيب ... بين لنا كاتب البطاقة[3].

وقد تعدت معارضة أهل السُنة حالة السكون إلى حالة الثورة والتى اشتعلت فى الصعيد سنة 361هـ/971م تحت قيادة عبدالعزيز بن إبراهيم الكلابى، الذى نجح فى طرد الوالى الفاطمى، ودعا للدخول فى طاعة الخليفة العباسى السنى ولبس السواد،واتسعت ثورته وانضم إليه كثير من أهل الصعيد، ونظم جيشاً كبيراً واستعد للزحف على القاهرة عاصمة الفاطميين، ولما وصلت أخبار الثورة لجوهر الصقلبى أحس بخطورة الموقف وقسم جيشه

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 373/5 ؛ وانظر: الذهبى: تاريخ الإسلام، 131/10، السيوطى: تاريخ الخلفاء، دار الفكر، القاهرة، ص4.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 16،62/4.

(3) النويرى: نهاية الأرب، 143/28 ؛ وانظر: ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس، دار المسيرة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1993م، ص85. وقد ذكر النويرى الواقعة فى عهد المعز لدين الله.

إلى فرقتين برية وبحرية، وأرسل جيشه للصعيد، ودارت معركة بين الفاطميين والثائر السنى انتهت بهزيمة الثوار وتفرق الناس عن الثائر الذى وقع فى الأسر بعد ذلك وحمل للقاهرة ليعدم فيها[1].

الجدير بالذكر أن الفاطميين لم يكتفوا بإظهار شعائر مذهبهم الشيعى الإسماعيلى بل أسندوا المناصب العليا وخاصة القضاء إلى أتباعهم فى المذهب، واتخذت المساجد الكبيرة مركز دعاية للمذهب الشيعي، وتم إضافة منصب جديد يقوم على تعيين أحد كبار المتفقهين في مذهب الشيعة للقيام بنشر دعوتهم، وكان يعرف بداعي الدعاة، وكانت منزلته تلي قاضي القضاة ويعاونه اثنا عشر نقيبًا، ونواب في سائر البلاد، وكثيرًا ما تقلد رجل واحد منصبي قاضي القضاة والدعوة، وحولوا الشعائر إلى المذهب الشيعي واحتفلوا بعيد الغدير ويوم مقتل الحسين، وأذنوا في جميع المساجد بـ (حي على العمل)[2]، وتضرر الفقهاء وأهل السنة عموما من ذلك كثيرًا وعبروا عن غضبهم بإظهار شعائرهم ففى سنة 362هـ رأيناهم يحتفلون باليوم الذى دخل فيه النبى وصاحبه الصديق غار ثور حال الهجرة من مكة إلى المدينة، وكان ذلك موافقاً للسادس والعشرين من ذى الحجة، وقد بالغوا فى الاحتفال بذلك اليوم فأظهروا الزينات ونصبوا القباب وأوقدوا النيران، ولم تستطع الحكومة الفاطمية الشيعية أن تمنع أهل السنة من الفقهاء والعلماء والعامة من ذلك مخافة من ثورتهم ضدها[3].

الجدير بالذكر أن الشيعة غاظتهم هذه الاحتفالات التى أقامها أهل السنة فراحوا ينهبون أملاك أهل السنة، مما دفع الفقهاء والعلماء وكبار أهل السنة أن يرفعوا شكواهم للخليفة المعز لدين الله الفاطمى. الذى نظر فى الشكوى[4].

---

(1) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 131/1 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين، ص64،65.

(2) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، دار الفكر العربى، القاهرة، 1394هـ/1974م، ص80.

(3) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 156/4 ؛ وانظر: محمد جمال الدين سرور، مرجع سابق، ص81،82 ؛ محمد الحويرى: مرجع سابق، ص171 ؛ محمود خلف: ثورات المصريين، ص72.

(4) محمد جمال الدين سرور: مرجع سابق، ص82.

لم تتوقف سياسة الفاطميين فى التمكين لخلافتهم الشيعية عبر كل الوسائل الدعائية وغيرها، ومن ثم رأينا العزيز بالله ثانى حكام الفاطميين لمصر يصدر قراراً فى العام 365هـ بنشر المذهب الشيعى، ويحتم فيه على القضاة تحقيق ذلك وأن يسيروا فى أحكامهم طبقا للمذهب الإسماعيلى، وقصر المناصب على الشيعة، وأصبح على أهل السنة من العلماء والفقهاء وغيرهم أن يتركوا المناصب القيادية كرها، ويكتفوا بالمناصب الصغرى فى الدولة الأمر الذى أغاظ بعضهم، وأصاب البعض منهم باليأس فراحوا يداهنون الفاطميين الشيعة ويخضعون لقراراتهم كى ينالوا بعض الرضا[1]. وربما تعدوا ذلك إلى مصادرة كتب أهل السنة والتنكيب بمالكها، ومن ذلك ما وقع فى العام 381هـ من قبض السلطة الفاطمية على رجل سنى وطيف به المدينة وضرب لأجل وجود نسخة من كتاب الموطأ للإمام مالك عنده[2].

وقد أمر الحاكم بأمر الله في سنة 395هـ بنقش سب الصحابة على الجدران وفي الأسواق والشوارع والدروب[3]. الأمر الذى دفع الفقهاء والعلماء والعامة من أهل السنة أن ينتفضوا ضد هذا القرار بالفسطاط، ومن ثم رأينا الحاكم يخفف من حدة هذا القرار خوفا من ثورة تطيح به من قبل أهل السنة فأمر فى العام التالى بعدم سب أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وأمر بضرب عنق من يفعل ذلك، وفى سنة 397هـ أمر بمحو لعن الخلفاء الثلاثة أبى بكر وعمر وعثمان والصحابة، وأمر صاحب الشرطة أن يلزم كل صاحب دار بمحو السب من على جدرانه، وأمر بضرب وتشهير كل من يسب الصحابة، وتم تنفيذ ذلك فى أحد الأشخاص ونودى عليه " هذا جزاء من سب أبا بكر وعمر "، ومنع المؤذنين من عبارة حى على خير العمل، وأجاز القول بـ " الصلاة خير من النوم"، بل وخطا خطوة بعيدة المدى عندما أنشأ مدرسة لتعليم المذهب السنى وعين أبا بكر الإنطاكى ناظراً لها[4].

---

(1) أنظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، 286/2 ؛ محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص82.

(2) المقريزى: المواعظ، 157/4 ؛ وانظر: عبداللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى الأول، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2006م، ص38.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 166/2.

(4) محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1379هـ/1959م، ص146 ؛ وانظر: محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية فى مصر، ص83.

وإمعاناً من الحاكم بأمر الله فى الظهور بمظهر البعيد كل البعد عن العصبية والتنكيب بمخالفيه رأيناه يصدر مرسوماً فى سنة 398 هـ للتوفيق بين السنة والشيعة، بدأه بقوله تعالى: " لا إكراه فى الدين "، وأبرز فيه حقوق أهل السنة فى صيامهم رمضان بالرؤية، وفى صلاة الضحى وصلاة التراويح، والتكبير أربعاً فى صلاة الجنائز، وعدم سب السلف والصحابة[1]، وأظهر الاحتفال بمولد النبي -ﷺ- ومولد ابنته السيدة فاطمة وعليّ بن أبي طالب.

الجدير بالذكر أن الحاكم بأمر الله ما أن استقرت له الأمور وشعر بنجاحه فى مخططه مع أهل السنة من خلال قراراته ومراسيمه السابقة رأيناه يعود لطبيعته القائمة على ضرورة التمكين لمذهبه الشيعى واجتثاث أهل السنة ومن يمثلهم وإزاحة تعاليمهم. فأمر فى العام 401هـ إعادة عبارة " حى على خير العمل " فى الصلاة، وأبطل صلاة الضحى والتراويح[2].

ولابد مما ليس منه بد أن نشير إلى انتفاضة أهل السنة بالقاهرة ضد الحاكم فى العام 403هـ، ووقعت الاشتباكات بين السنة والشيعة بسبب إعادة سب الصحابة والطعن فيهم، وهرعت الجموع السنية إلى القصر وهم يستغيثون ويصيحون: " لا طاقة لنا ولا صبر على ما يجرى"، فصرفهم قائد القواد، وهم يستغيثون فى الطرقات ؛ وعلى أثر ذلك قرىء بالقصر سجل جديد بالترحم على السلف من الصحابة والنهى عن الخوض فى ذلك، وشدد السجل على محو السب أينما وجد، وبدأ الحاكم يتفقد الأماكن فإذا وجد شيئا مكتوبا بسب الصحابة أنكره ووقف حتى تتم إزالته، وأمر بمحو كل سباب للصحابة على الألواح[3]، وذلك فى محاولة لتهدئة بركان أهل السنة الذى كان يغلى تحت قيادة الفقهاء والعلماء ضد الحاكم لأجل قراره السابق.بل وجدناه يميل إلى فقه أهل السنة فى محاولة منه مهادنة السنة ليس إلا فأباح الصوم على رؤية الهلال، وترك الحرية لمن يريد أن يصلى صلاة التراويح وصلاة الضحى،

---

[1] محمد عبدالله عنان: الحاكم بأمر الله، ص147 ؛ وانظر: محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص83.

[2] محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص84.

[3] ابن الأثير: الكامل، 129/8 ؛ وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 296/5 ؛ عنان: الحاكم بأمر الله، ص146 ؛ محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية فى مصر، ص83.

وبالتكبير على الجنازة أربع تكبيرات، وأصدر مرسوما يقضى بعدم مخاطبته بالإمام وأن يخاطب بأمير المؤمنين، وعين القاضى السنى أحمد بن أبى العوام الحنبلى قاضياً على مصر وسائر الولايات الفاطمية[1].

بل إن حكام الدولة الفاطمية بالغوا فى مواجهة أهل السنة حتى وصل بهم الحد إلى قتل من اشتهر منهم بالعلم بالإسكندرية ليخيم الجهل على الناس ويسهل تحويلهم للمذهب الشيعى، ومن ثم رأينا أكابر الفقهاء السنة يتحولون إلى الإسكندرية ليبصروا أهلها، وليس أدل على ذلك من قول الإمام الطرطوشى: " إن سألني الله تعالى عن المقام بالإسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم، أقول له: وجدت قوما ضُلالا فكنت سبب هدايتهم[2]".

ويتضح دور فقهاء السنة جلياً فى مواجهتهم للحاكم بأمر الله عندما ادعى معرفة الغيب. هنا كتبوا كلاما ينتقدونه فيه بادعائه هذا، ويطلبون منه أن يبين لهم من الذى كتب هذا الكلام، وعلقوا البطاقة على المنبر فرآها الحاكم، وما كان منه إلا أن أبطل ادعاء الغيب[3]. كذلك استغل الفقهاء المصريين محضر الطعن فى نسب الفاطميين واتهامهم بالكفر والزندقة وتعطيل حدود الإسلام الذى أصدره الخليفة العباسى القادر بالله فى ربيع الآخر 402هـ وراحوا يرددون محتواه بين الناس مما قضض مضجع الحاكم بأمر الله فكان كل جمعة يردد من على المنبر: "نحن أفضل من خلفاء بنى العباس لأننا من ولد فاطمة بنت الرسول[4]".

وقد انتشر مذهب الباطنية فى عهد الحاكم بأمر الله إذ اقترن به رجل يعرف باللباد الزوزنى فأظهر هذا المذهب، وكان عند سلف الحاكم منه طرف، ولكن بمجرد انتشاره فى

---

(1) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م، ص171 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين، ص179.

(2) ابن فرحون: الديباج المذهب، تحقيق الأحمدى أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة، 247/2.

(3) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،1402م، قسم 1، 208/1.

(4) نفس المصدر والمكان والصفحة ؛ وانظر: وئام محمد: الفكاهة فى الشعر المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى، مؤسسة الانتشار العربى، بيروت، 2010م، ص122.

عهد الحكم ارتفعت أصوات أهل السنة وأنظروا هذا المذهب لما يشتمل عليه مما لم يعرف عند سلف الأمة وتابعيهم ولما فيه مخالفة الشرائع[1].

وفي سنوات حكم الحاكم بأمر الله الأخيرة جاء إلى مصر بعض الفرس، والذين راقتهم الدعوة الإسماعيلية فاعتنقوها، وزادوا فيها فكرة تأليه الحاكم، ودعوا إليها فسخط عليهم أهل السنة وطاردوهم وكان أشهرهم والمقرب إلى الحاكم بأمر الله محمد بن إسماعيل الدرزى، وقد هرب إلى بعض قري بانياس (بلدة صغيرة غربي دمشق) حيث أخذ ينشر دعوة تأليه الحاكم، فاستمال إليه كثيرًا من الأنصار الذي أصبحوا يعرفون باسم الدرزية[2].

وقد وجد الخليفة الحاكم بأمر الله في هذه الدعوة فرصة ليحيط نفسه بسياج من التقديس رغبة منه في جعل رعاياه طوع إرادته، وبدأت البعض من الناس إذا وجدوا الحاكم سجدوا له وقالوا: "السلام عليك يا واحد يا أحد يا محيي يا مميت[3]"، وزاد الأمر على ذلك عندما وجدنا الحسن الأخرم يدعى أن الحاكم بأمر الله هو المعبود فى محاولة منه لتأصيل ذلك. هذا فضلا عن دعوته لإبطال النبوة[4] كى يستكمل خطته فى إثبات ألوهية الحاكم، ثم نادى الأخرم فى العام 411هـ فى جامع الفسطاط قائلا: "بسم الحاكم الرحمن الرحيم[5]"؛ وقد استغل دعاة ألوهية الحاكم أموراً صدرت منه وحاولوا يوظفوها لدعوتهم المارقة، ومنها أن الحاكم ألغى الزكاة ثم أعادها، وألغى صلاة الجمعة الرسمية فى رمضان، وفى العيدين، وألغى الحج وأبطل الكسوة النبوية غير مرة[6].

---

[1] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 345/3.

[2] جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، دار المعارف، القاهرة، 154/1.

[3] السيوطى: حسن المحاضرة، 601/1 وما بعدها ؛ وانظر: عبدالمنعم ماجد: ظهور الخلافة الفاطمية، ص284 ؛ أحمد صبحى منصور: شخصية مصر بعد الفتح الإسلامى، دار الهنا للطباعة، القاهرة، 1984م، 64.

[4] عبدالمنعم ماجد: مرجع سابق، ص287.

[5] السيد عبدالعزيز سالم: دراسات فى تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية العصر الفاطمى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1997م، ص188.

[6] عنان: الحاكم بأمر الله، ص149.

لم يقف فقهاء أهل السنة مكتوفى الأيدى تجاه الدعوة لألوهية الحاكم فخرجوا ينددون بذلك فى الشوارع، وكانت تقع المصادمات والاغتيالات والقتل بين الفريقين، ومن أجلى معارضات فقهاء السنة لهذا الشأن ما وقع من تظاهر أهل السنة بالفسطاط عقب الصلاة على الحافظ أبى محمد عبدالغنى بن سعيد الأزدى فى العام 409هـ، وكان القاضى الحنبلى ابن أبى العوام هو الذى قاد فقهاء السنة من أجل نصرة الإسلام[1].

كان من نتائج المعارضة السنية لدعوى ألوهية الحاكم أن أعلن الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله بعد مضي ثلاث سنوات على وفاة الحاكم براءته من دعوى الألوهية التي قيلت في أبيه بعد حالة الغليان التى سيطرت على أهل السنة بفقهائهم وعلمائهم وشعرائهم.

وفى عهد المستنصر الفاطمى جاء الحسن بن الصباح إلى مصر وذلك في 19 صفر 471 هـ / 30 أغسطس 1078 م، وكان القائم على الدعوة الإسماعيلية بأصبهان، وكان مجيئه إلى مصر ليتعمق في دراسة المذهب الإسماعيلي فلما رأي الصراع حول من يخلف المستنصر من أبنائه. دعا إلى تولية نزار الإمامة بعد أبيه وقال إن ذلك يتفق مع تعاليم الإسماعيلية، التي تشترط أن يكون الإمام أكبر أبناء أبيه، وأظهر الحسن رأيه بمصر، وهدد نفوذ بدر الجمالي، فكاد له بدر الجمالى وزجه بالسجن ونفاه إلى بلاد المغرب، غير أن الريح قذفت بالسفينة التي أبحر عليها سنة 472 هـ إلى سواحل الشام، فنزل بثغر عكا ثم عاد إلى بلاده حيث أخذ ينادي بإمامة المستنصر وابنه نزار، من بعده ولذلك سميت هذه الطائفة الإسماعيلية النزارية.

لقد نجح الحسن الصباح فى نشر مذهبه فى مصر وفى العديد من البلاد، وقامت أفكاره على استباحة دماء مخالفيه. فاشتد النكير عليه من قبل فقهاء السنة وغيرهم حيث افتوا بخروج هذه الطائفة عن الإسلام ونفوهم عن الملة، وزادت المعارضة ضد الشيعة الإسماعيلية بعامة من قبل أهل السنة فى مصر والعراق وسائر البلاد التابعة للخلافة العباسية، وكتبت المحاضر الطاعنة فى نسب الفاطميين والتى ترجعهم إلى نسل اليهود وتنفى نسبتهم إلى على بن أبى طالب وفاطمة بنت الرسول[2]. وقد كان لكل هذا أثره فى نفور الكثيرين من

---

[1] أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص175.

[2] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/345.

المغاربة من المذهب الإسماعيلى وعدم ثقتهم فيه وفيمن يمثله، ومن ثم يمموا وجوههم إلى المذهب السنى[1].

ويتضح دور فقهاء السنة أيضا فى المقاومة القولية أو النصح للخليفة وتقديم المشورة، ومن ذلك ما حدث فى العام 365هـ حيث أذن المعز لدين الله لجماعة من فقهاء السنة بالدخول عليه فخاطبهم وهو على عرشه وشدد القول والعتاب والتهديد لهم. فلم يسكتوا وصاح أحدهم فى وجهه بصوت عال: يا أمير المؤمنين قال الله عز وجل: " وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14)". فقال المعز صدق الله كذا قال الله عز وجل، ونسأل الله التوفيق[2].

وفى عهد الحاكم قام أحد الحاضرين فى مجلسه بالقصر وحوله الأعيان فأشار إلى الحاكم بأمر الله وقرأ قول الله تعالى: " فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)". فلما فرغ من تلاوته. قام أحد فقهاء السنة ويعرف بابن المشجر فقرأ قول الله تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (73) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (74)". فلما انتهى ابن المشجر تغير وجه الحاكم. ثم أمر له بمائة دينار ولم يأمر للآخرين بشىء، ورغم هذا العطاء فإن بعض رجال القصر نصحوا ابن المشجر بمغادرة مصر خوفا من بطش الحاكم، فاستجاب الرجل وخرج للحج، ومات فى الطريق[3].

ومن الأمور التى عارضها فقهاء السنة تقريب الفاطميين لأهل الذمة من اليهود والنصارى ومعاونتهم فى بناء كنائسهم، ومن ذلك مساعدة المعز لدين الله للبطريرك

---

[1] مصرية تعبان مهدى: الحياة الاجتماعية فى مصر الفاطمية، أطروحة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1430هـ/2009م، ص80،81.

[2] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 228/1.

[3] ابن خلكان: وفيات الأعيان، 395/5.

السريانى ببناء كنيسة أبى مرقورة التى كانت قد هدمت، وكذا الكنيسة المعلقة بقصر الشمع وإطلاق المعز للبطريرك الأموال الطائلة من بيت المال لبناء الكنائس، الأمر الذى وجد معارضة من الفقهاء وتطور إلى تأثر أهل السنة من المصريين فخرجوا فى ثورة عارمة يعبرون فيها عن سخطهم مما فعله المعز، الأمر الذى دفع المعز أن يتدخل بقوة الجند والسلاح للقضاء على الثورة وإتمام دعمه للبطريرك، ومن ثم استغل البطريرك الفرصة وقام بتجديد كافة كنائس الفسطاط فضلا عن كنائس الإسكندرية[1].

وعندما تزوج العزيز بالله بن المعز من مسيحية رومانية الأصل ملكانية المذهب، أصبح لها نفوذ عظيم على العزيز، ومن ثم حملته على العطف على بني ملتها فاحتفل بأعيادهم ومواسمهم الدينية، وأصبح بدواوين الدولة عدد كبير من كتابهم، واستأثروا بمعظم السلطات[2].

الجدير بالذكر أن الفقه والشعر تضافرا معا وتحرك الشاعر الحسن بن بشر الدمشقى تحت تأثير فتاوى الفقهاء ليسخر من حالة تقريب العزيز بالله لليهود والنصارى فيصفها وصفا دقيقا بقوله:

تنصر فالتنصر دين حق .... عليه زماننا هذا يدل

وقل بثلاثة عزوا وجلوا .... وعطل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب وهذا .... العزيز ابن وروح القدس فضل.

ولم يكن أمام العزيز إلا أن يتغاضى عن ذلك مخافة من ثورة المصريين[3].

---

(1) ساويرس بن المقفع: تاريخ البطاركة، القاهرة، 1959م، 97/2 ؛ وانظر: أبو صالح الأرمنى: تاريخ كنائس وأديرة مصر، أكسفورد 1894 م، ص46،47.

(2) يحيى بن سعيد: تاريخ الأنطاكى، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، مكتبة جروس برس، ص203 ؛ وانظر: ابن الصيرفى: الإشارة فيمن نال الوزارة، تحقيق أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة – بيروت، ص12 وما بعدها ؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، 442/16-444.

(3) محمود خلف: ثورات المصريين فى العصر الفاطمى، ص110 ؛ وانظر: وئام محمد: الفكاهة فى الشعر المصرى فى العصرين الفاطمى والأيوبى، ص125.

بل إن العزيز اضطر للتنكيب بمنشا اليهودى والوزير عيسى بن نسطور حال تحريك فقهاء السنة لقضية سيطرة أهل الذمة على أمور الدولة وإضرارهم بالمسلمين. إذ إن الفقهاء كتبوا قصة جعلوها في يد صورة (تمثال) من قراطيس (ورق) فيها: بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل المسلين بك (العزيز بالله) إلا كشفت ظلامتي؟! وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز. فلما رآها اضطر أمام تذمّر أهل السنة بمصر من هذا الوضع إلى القبض عليهما، وأخذ من ابن نسطورس ثلاثمائة ألف دينار. ولكنه عاد فأفرج عنه بتأثير من ابنته ست الملك[1].

وقد سار جل حكام الفاطميين على سياسة تقريب أهل الذمة منهم فهذا الحاكم بأمر الله يقلد الوزارة لمنصور بن عبدون النصراني، الذي أشار على الحاكم بهدم كنيسة القيامة أو القبر المقدس، فأصدر مرسومًا بهدمها، وكان لهدم هذه الكنيسة الأثر الأكبر في إثارة حمية الصليبيين للاستيلاء على بيت المقدس.

وكان الظاهر شديد العطف على أهل الذمة، وعندما ولى أبا نصر صدقة بن يوسف الفلاحى وزيرا له وكان يهوديا فأسلم. إلا أنه مع إسلامه ترك تدبير أمر الدولة لأبى سعد التسترى اليهودى مما دفع الفقهاء للاعتراض على هذا التسلط اليهودى والذى وصفه أحد الشعراء من ذوى البصر بالفقه بطريقة ساخرة فقال:

يهود هذا الزمان قد بلغوا ..... غاية آمالهم وقد ملكوا

العز فيهم والمال عندهم ..... ومنهم المستشار والملك

يا أهل مصر إنى نصحت لكم ..... تهودوا قد تهود الفلك[2].

لقد كان لمعارضة الفقهاء والشعراء السنة دور كبير فى نزول الظاهر على رغبتهم ورغبة المصريين السنة باعتقال الوزير الفلاحى وقتله، وإعادة الوزارة إلى أربابها[3].

---

[1] ابن الجوزى: المنتظم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 190/7 ؛ وانظر: النويرى: نهاية الأرب، 167/28 ؛ حسن إبراهيم: الدولة الفاطمية، ص203 ؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر، ص156.

[2] السيوطى: حسن المحاضرة، 175/2 ؛ وانظر: وئام محمد: مرجع سابق، ص126.

[3] شوقى ضيف: الشعر وطوابعه الشعبية، دار المعارف، مصر، ص166.

وفي أوائل عهد المستنصر بالله ارتفع شأن أبي سعد إبراهيم ابن سهل التستري اليهودي، لأن والدة ذلك الخليفة كانت من قَبْل أَمَة في بيته، فلما ولي ابنها المستنصر الخلافة قربت التستري وولته ديوانها، وتحيز التستري لليهود، فتقلدوا في أيامه كثيرًا من مناصب الدولة، وفى عهد الآمر بأحكام الله بلغ كتاب النصارى مبلغا من العلو والتمكين أن أخذوا أموال الناس واستولوا عليها، وكان الآمر قد قلد ابا البركات يوحنا بن أبى الليث النصرانى ديوان التحقيق من عام 501هـ إلى أن قتل فى العام 528هـ[1].

لم يكن الاعتراض على تقريب أهل الذمة والسماح لهم بالتسلط قاصراً على الفقهاء بل وجدنا وزيراً سنياً هو رضوان بن ولخشى يعمد إلى مواجهة تسلط اليهود والنصارى من خلال مضاعفة جباية الجزية ثلاث درجات: الأغنياء ويدفعون أربعة دنانير وسدس، والأوسطين يدفعون دينارين وقيراطين، ثم بقية عامتهم ويدفعون ديناراً واحداً وثلث وربع، وألزمهم أن يشدوا زنانيرهم فى أوساطهم[2].

الجدير بالذكر أن جماعة من فقهاء السنة كان لهم دور مهم فى التمكين للخليفة الجديد عند أخذ البيعة له كولى للعهد إذ كانوا يظهرون أمام الجميع وهم يبايعونه مما كان له أثر كبير فى التأثير على الرعية لقبول بيعة الخليفة الفاطمى الشيعى، ومن ذلك ما حدث عقب مرض المعز لدين الله الفاطمى الذى مات فيه. إذ خرج ولى عهده نزار الذى لقب بالعزيز بالله للسلام على الناس فدخل عليه القاصى السنى أبو الطاهر الذهلى، والفقهاء فسلموا عليه بولاية العهد، وفى يوم الجمعة دعا له الفقيه والخطيب عبدالعزيز بن عمر على منبر جامع عمرو بن العاص بعد ان دعا للمعز فقال: " اللّهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة ومعدن الفضل والإمامة عبد الله معد أبي تميم الإمام المعز لدين الله كما صليت على آبائه الطاهرين وأسلافه المنتخبين من قبله. اللّهم أعنه على ما وليته وأنجز له ما وعدته وملكه مشارق

---

[1] لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر: النويرى: نهاية الأرب، 275/28 ؛ المقريزى: مصدر سابق، 117/3؛ هيفاء عاصم: أهل الذمة ومكانتهم فى المجتمع الفاطمى فى مصر، مجلة كلية الآداب – جامعة بغداد، عدد 10، 2009، ص5 وما بعدها.

[2] أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص524، 266.

الأرض ومغاربها. واشدد اللّهم أزره وأعز نصره بالأمير نزار أبي المنصور ولي عهد المسلمين ابن أمير المؤمنين الذي جعلته القائم بدعوته والقائم بحجته. اللّهم أصلح به العباد ومهد لديه البلاد وأنجز له به ما وعدته إنك لا تخلف الميعاد[1].

وكما كان لفقهاء السنة دور مهم فى التمكين لبعض الخلفاء من خلال البيعة فإنهم لعبوا دوراً مهماً فى إسقاط الدولة الفاطمية. وهذا الدور تعود جذوره إلى عام 559هـ حيث حملة شيركوه الأولى على مصر إذ إن شيركوه التقى بكبار فقهاء مصر وعلى رأسهم محمد بن إبراهيم بن ثابت الكيزانى، وابن حطية، وابن مرزوق وزين الدين بن نجا الحنبلى الأنصارى فزينوا له السيطرة على مصر، وأخبره ابن مرزوق أنه سيملك الديار المصرية ويزيل الدولة الفاطمية الشيعية لكنه لا يملكها إلا بعد أن يرجع إلى الشام ويأتيها ثانيا ثم يرجع ويعود إليها ثالث مرة وحينئذ يملكها. فكان ما أخبره به[2]، ولا شك أن هذا الكلام من قبل فقيه له وزنه كان له أثر كبير على أسد الدين شيركوه فى شحذ همته والتصميم على تنفيذ مخططه بالسيطرة على مصر وإزالة الدولة الفاطمية.

وعندما أراد صلاح الدين أن يقبض على العاضد ويمسك بزمام الأمور أيام كونه وزيراً بعد عمه أسد الدين شيركوه استفتى الفقهاء السنة فى جواز ذلك من عدمه فأفتوه بجواز القبض على العاضد، وذلك لأنه وأشياعه كانوا على حالة من انحلال العقيدة وفساد الاعتقاد وكثرة الوقوع فى الصحابة لا تخفى على أحد، وكان أكثر فقهاء السنة مبالغة فى الفتيا نجم الدين الخبوشانى الفقيه الشافعى الذى عدد مساوىء الفاطميين وسلب عنهم الإيمان[3]. فانشرح صدر صلاح الدين لكلام الفقهاء وأقدم على ما كان قد عزم عليه من خلع العاضد.

وقد سبق هذا الدور للفقهاء دور آخر وهو قيامهم بالخطبة للخليفة المستضىء العباسى السنى وإزالة اسم العاضد من الخطبة قبل عزله ووفاته. حيث اعتلى أحد فقهاء السنة من

---

(1) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 1/229،228.

(2) نفسه، 3/273،272، 265.

(3) نفسه، 3/330،329. قال النويرى عن العاضد: كان شديد التشيع متغاليا فى سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين. إذا رأى سنياً استحل دمه. أنظر: نهاية الأرب، 28/346.

الأعاجم وكان يعرف بالأمير العالم منبر جامع عمرو بن العاص وبدأ بالدعاء للخليفة المستضىء قبل خطبة إمام المسجد، فلم ينكر أحد عليه ولا تحرك له. فتيقن صلاح الدين من زوال دولة الفاطميين، ومن ثم أمر جميع الخطباء فى مصر أن يخطبوا للخليفة العباسى السنى فبدأ ابن أبى المضاء الدمشقى خطيب جامع عمرو بن العاص ثم تتابع الخطباء فى تنفيذ ذلك[1].

وتجدر الإشارة إلى أنه منذ العام 566هـ وخطباء السنة يخطبون للخليفة العباسى السنى تحت مسمى أبى محمد ويعنون به أبا محمد الحسن المستضىء. فى حين أن الروافض يظنون أنه العاضد حتى قرر صلاح الدين إعلان الدعاء علانية لأبى محمد الحسن المستضىء أمير المؤمنين فى إحدى خطب الجمعة من شهر ذى الحجة سنة 566هـ فانتحى لذلك فقيها ظاهريا سنيا هو اليسع بن عيسى الغافقى الأندلسى فصعد المنبر مستعدا من الحديد بما يدفع عن نفسه إن أراده أحد بسوء فخطب ودعا للخليفة العباسى، وذكر نسبه إلى العباس عم النبى[2].

---

[1] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 326/3.

[2] النويرى: نهاية الأرب، 345/28 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، 322،323/3. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الفقيه الظاهرى أنظر: عبدالباقى السيد عبدالهادى: تاريخ أهل الظاهر، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص 261.

المبحث الثانى: أهل السنة ومنصب الوزارة:

بينما إتسمت الخلافة بالقوة فى النصف الأول من عهد الخلافة الفاطمية شهد النصف الثانى ضعف الخلافة والخلفاء بسبب تسلط الوزراء وزيادة نفوذهم على نفوذ الخلفاء[1].

ففى النصف الأول من العصر الفاطمى كانت الوزارة من أهم الوظائف بعد الخلافة , فكان مركز الوزير ونفوذه يتأثر بقوة الخليفة , أما فى النصف الثانى من العصر الفاطمى تغلب الوزراء وسيطروا على شئون الدولة كلها, وسلبوا الخلفاء كل سلطان ونفوذ، وبلغ من نفوذ الوزراء فى ذلك العصر أن غلب سلطانهم على سلطان الخلفاء بشكل عام, وزاد نفوذ الوزراء حتى أنهم كانوا يعينون بعض الخلفاء ويعزلونهم, بل ويتآمرون عليهم, كما إتخذوا ألقاباً كلقب "الملك" وألقاباً أخرى تفيد مزيداً من التفضيل مثل "الأكمل" و"الأفضل" و"الأشرف", وأصبحت الوزارة أهم وظائف الدولة وأكبرها, حيث تضاءلت إلى جانبها وظيفة الخليفة[2].

وتجدر الإشارة إلى أن جوهر الصقلبى اضطر للإبقاء على الوزير ابن الفرات فى وزارته مخافة من أهل السنة[3]، ومع مضى الوقت بدأت الدولة فى تقليد الوزارة لمن هو على مذهبهم ومن هؤلاء الوزير بدر الجمالى الذى غالى فى نصرة الشيعة من خلال عداوته لفقهاء وعلماء أهل السنة الذين اضطهدهم ونكب بهم، بل وأصدر مرسوما فى العام 487هـ نص على إعادة عبارة " حى على خير العمل " فى الصلاة، وكانت قد توقفت بفعل جهود الفقهاء والعلماء من أهل السنة، وجعل التكبير خمسا على الميت حسب تقاليد المذهب الشيعى[4].

لقد سيطر الوزراء على مقاليد الحكم فى النصف الأول من حكم الفاطميين، وبلغ من نفوذ الأفضل أنه بعد وفاة المستعلي سنة 495هـ أتى بأبي على بن المستعلي، وأقامه على الخلافة

---

(1) عن نظام الوزارة فى مصر الفاطمية أنظر: جمال الدين الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2011م، ص27 وما بعدها ؛ وانظر: عبدالمنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، 1/78-93.

(2) الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، 1/159.

(3) المقريزى: إتعاظ، 1/119.

(4) محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية، ص84.

وعمره خمس سنوات، ولقبه بالآمر فلما شب هذا الخليفة الصغير ضاق ذرعًا بنفوذ وزيره فدبر قتله سنة 515 هـ[1].

لقد كان الأفضل حسن الاعتقاد، سنياً، حميد السيرة، كريم الأخلاق، لم يأت الزمان بمثله على حد تعبير ابن القلانسي[2]، ولا شك أن سنيته هى التى دفعته أن يحجر على الآمر ويسيطر على أمور الدولة بحيث لم يعد للخليفة أمر ولا نهى، ولا تعود له كلمة على حد تعبير المقريزى[3]. بل إن الأفضل أظهر تعصبه للسنة ومعارضته للمذهب الشيعى عندما ألغى الاحتفال بمولد النبى ومولد ابنته فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الفاطمى[4]، ولا يخفى على أحد أن هذا الإجراء كان كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمى الذى كان يعتمد على نظرية الإمامة، والانتساب – على حد زعمهم- لفاطمة الزهراء بنت النبى. بل إن الأفضل بلغ تعصبه للسنة أن أغلق دار العلم سنة 513هـ، والتى أنشأها الحاكم بأمر الله وزودها بآلاف الكتب الشيعية لدعم مذهب الدولة الفاطمية، وكان الداعى لغلقها منع الخوض فى المذاهب الشيعية[5]. وكان الأفضل قد افتتح دار الملك وخصها بمجلس عرف بمجلس العطاء، حيث كان يعطى آلاف الدنانير لمن يستحسن شعره من الشعراء[6]، ومن ثم فقد نجح فى إحاطة نفسه بسياج من الدعاية لأعماله على أيدى هؤلاء الشعراء، كما نجح فى ازدهار الحركة الفكرة والثقافية بعمله ذاك.

ولابد مما ليس منه بد أن نؤكد على أن سنية الأفضل بن بدر الجمالى تبعها انتعاش دور فقهاء السنة الذين ساعدوه فى كثير من أفكاره ومشاريعه الخاصة بمواجهة الشيعة

---

(1) الذهبى: سير أعلام النبلاء، 508/19.

(2) نفسه، 509/19.

(3) أنظر: إتعاظ الحنفا، 132/3.

(4) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مصر الإسلامية، ص204،205.

(5) القلقشندى: صبح الأعشى، 362/3 ؛ وانظر: السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مصر الإسلامية، ص205 ؛ أيمن فؤاد ك الدولة الفاطمية، ص589.

(6) ابن ميسر: أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد سيد، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1981م، ص 58 ؛ وانظر: المقريزى: المواعظ، 243/3 ؛ أحمد بدوى: الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط1، 1954م، ص24،25.

ومخططاتهم، فضلا عن دورهم فى التمكين لابنه أحمد من بعده والذى تولى الوزارة وكان سنياً كأبيه وقطع أشواطاً بعيدة المدى فى النيل من الخلافة الفاطمية الشيعية ومذهبها الإسماعيلى على ما سنوضح بعد قليل. ولذا فلما تجمع جماعة من الشيعة فى مشهد السيدة نفيسة يوم عاشوراء وجهروا بسب الصحابة رأينا الوزير الأفضل يأمر بمنعهم وبضرب جماعة منهم، وتأديب والى القاهرة لحدوث ذلك[1]، ولا شك أن هذا الإجراء ما كان ليتم لولا سنيته، وتوجيهات فقهاء السنة له بذلك.

وقد حرص الأفضل فى وزارته أن يشعر الجميع بأن طريقته مختلفة تماماً عن طريقة من سبقوه فى المنصب فرغم أن المصادرات والقبض واصطفاء أموال الناس ونفيهم كانت كثيرة قبله حتى فى عهد أبيه بدر الجمالى[2] إلا أننا لم نسمع فى عصره عن شىء من ذلك إذ لم يعرف أحد صودر فى زمانه ولا قشط[3]. ومن ذلك أن الدولة الفاطمية بعد وفاة القاضى الذهلى ألزمت قضاتها بأن يحكموا فى الميراث بالمذهب الإسماعيلى، والذى هو مختلف تماما عن نظيره السنى. وظل الأمر كذلك إلى أن جعل بدر الجمالى نظام الميراث على حكم مذهب من يموت[4]، ولكن عندما تولى الأفضل شاهنشاه الوزارة أفرد مال المواريث، ومنع من أخذ شىء من التركات وأمر بحفظها بمودع الحكم حتى إذا جاء من يطلبها وطالعه القاضى بثبوت استحقاقها أطلقها فى الحال، وكان القاضى قد أراد رفعها إلى بيت المال بعد أن بلغ ما اجتمع منها فى مودع الحكم مائة ألف وثلاثون ألف دينار[5].

ولا يمكننا أن نغفل دور محمد بن تومرت الهرغى الذى مارس الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمصر فى عهد وزارة الأفضل، ولم يكن يخشى فى الله لومة لائم فينتقد الحكام والولاة، وكل أمر منكر فى المجتمع مما أفضى به إلى النفى عام 511هـ[6].

---

(1) المقريزى: إتعاظ، 3/20،21.

(2) ابن ميسر: أخبار مصر، ص10،46.

(3) نفسه، ص83.

(4) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/89.

(5) ابن ميسر: أخبار مصر، 83،84.

(6) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/56 ؛ وانظر: محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 2000م، ص242.

كذلك لا يمكننا أن نغفل دور الإمام الطُرطُوشى الذى انتقل من الإسكندرية إلى القاهرة بكتابه سراج الملوك ليقدمه للوزير الشيعى المأمون محمد بن فاتك البطائحى ليطبق ما فيه فى معاملاته مع الرعية، كما حادثه الطرطوشى فى مخالفات تحدث فى الأحكام منها أمور المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال اليتامى، وهو ربع العشر، وكذا فى أمر توريث الابنة النصف[1]. وقد أسفر هذا اللقاء عن توصل المأمون البطائحى لأمر وسط جمع بين ما كان مطبقاً فى عهد الوزير الشيعى بدر الجمالى، وما طبق فى عهد ابنه الوزير السنى الأفضل شاهنشاه، ومن ثم يمكننا أن نعتبر أن الطرطوشى نجح إلى حد ما فى مهمته ؛ حيث جاء رد الوزير الشيعى المعتدل المأمون البطائحى بخصوص: " أمر المواريث وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم، وقرروه من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد؛ وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته؛ فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم؛ وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه: " وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْض فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّه بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ". ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهن، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهن بعدهم، عدولاً عن محجة الدولة، وخروجاً عما جاء به العباد من الأئمة... فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك... وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال، دانيها وقاصيها، قريبها ونائيها، من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة، وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها لمستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها؛ وأن يضربوا عما تقدم صفحا، ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب وانقضى.

[1] المقريزى: إتعاظ، 3/89،88.

وليوف الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بامتثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور؛ وليحذر كلا من القضاة والنواب، والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال، من اعتراض موجود أحد ممن يسقط الوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكرا كان أو أنثى....فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبيت المال بأجمعه... وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطاً حكميا، وقانونا شرعيا مصوناً من الاصطلام، محروساً من التفريط والاختزام؛ فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب، على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتياب، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد يقبضه عليه. وكذلك نمى إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحاً استمروا على فعله، واعتماداً لم يجر الأمر فيه على حكمه؛ فكره ذلك وأنكره. واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جارياً يقام لكل منهم من الإنعام[1]".

قُتِل الخليفة الآمر فى سنة 524هـ وتولي أخوه عبد المجيد أبو الميمون الحافظ الخلافة من بعده، وتولى أبوعلى أحمد بن الأفضل الوزارة وكان سنيا كأبيه[2]، فاستأثر بالسلطة والنفوذ وسجن الحافظ وعمل على إضعاف المذهب الإسماعيلي بأن عين أربعة قضاه؛ أحدهما إمامي والآخر إسماعيلي والثالث شافعي والرابع مالكي، وأعطي كلاً منهم السلطة في إصدار أحكامه وفق مذهبه، وهذا أمر لم يسمع بمثله في الملة الإسلامية قبل ذلك كما عبرت المصادر[3]، وكانت أفعال هذا الوزير مدعومة من فقهاء السنة، ومكث على ذلك حتى اغتالته الإسماعيلية سنة 526هـ وأخرجوا الحافظ من سجنه وعاد خليفة من جديد.

---

[1] المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/89-91.

[2] الذهبى: سير أعلام النبلاء، 19/510.

[3] أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر، ص74؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر،، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، 4/72؛ المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/142؛ محمد حسن دخيل: الدولة الفاطمية الدور السياسى والحضارى للأسر الجمالية، مؤسسة الانتشار العربى، بيروت، ط1، 2009م، ص105.

وكان سبب قتل هذا الوزير السنى على يد الشيعة الإسماعيلية قراره بتعيين قاضيين للسنة وتقريبه لفقهاء السنة فضلا عن أنه ترك من الخطبة اسم الحافظ، وخطب لنفسه، وقطع الأذان بحي على خير العمل، ومحمد وعلى خير البشر، فنفرت الشيعة منه[1].

ولا شك أن محاولة هذا الوزير السنى – الذى حاز من الألقاب ما حاز وجعل الخطبة لنفسه – لو قدر لها النجاح، أو قدر لحكمه أن يطول لقضى على الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلى فى ذلك التوقيت، ولعل الفاطميين استشعروا خطورة بقائه فدبروا أمر قتله، واعتبروا اليوم الذى قتل فيه عيداً قوميا للدولة وللمذهب عرف بعيد النصر[2].

وفي سنة 529هـ طمع بهرام الأرمني والي الغربية في الوزارة، فقدم إلى القاهرة وحاصرها يومًا فاضطر الحافظ إلى توليته الوزارة على الرغم من عدم دخوله الإسلام، وعاني المصريون فترة من سيطرة الأرمن وتحيز بهرام لبني جنسه.فأكثروا من بناء الكنائس والأديرة حتى صار لكل رئيس منهم كنيسة بجوار داره، وتطاول النصارى على المسلمين طيلة أيامه[3].

لقد اعترض فقهاء السنة من البداية على تولية بهرام الأرمنى الوزارة ونقلوا هذه المعارضة وأسبابها مع حواشى الخليفة الحافظ فى النص التالى: " لا يرضى المسلمون بهذا، ومن شروط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد... والقضاء نواب الوزير...ويذكرون دائما عنه فى الكتب الحكيمة النافذة إلى الآفاق، وكتب الأنكحة ". ورغم هذه المعارضة وهذه الواقعية التى حملتها فإن إصرار الحافظ على بقاء بهرام حمله أن يرد على المعارضين بقوله: " إذا رضينا نحن فمن يخالف ؟، وهو وزير السيف. أما صعود المنبر فنستنيب عنه قاضى القضاة، وأما ذكره فى الكتب الحكيمة فلا حاجة إلى ذلك[4]...".

وتجدر الإشارة إلى أن نصرانية بهرام منعت من ذكر اسمه فى أية نقوش خاصة بالمساجد والعمارة الإسلامية، وكان إذا حانت صلاة الجمعة يجلس فى دكان بجوار الجامع الذى يصلى فيه الخليفة حتى يفرغ من الصلاة[5].

---

(1) الذهبي: مصدر سابق، 510/19 ؛ وانظر: المقريزى: مصدر سابق، 143/3. ولمزيد من التفاصيل عن واقعة قتله واغتياله أنظر: محمد محمود خليل: الاغتيالات السياسية فى مصر فى عصر الدولة الفاطمية، مكتبة مدبولى، القاهرة، 2007م، ص134 وما بعدها.

(2) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مصر الإسلامية، ص207.

(3) المقريزى: إتعاظ، 156/3.

(4) نفس المصدر والمكان ؛ وانظر: فرج حسين: النقوش الكتابية الفاطمية، ص426.

(5) فرج حسين: مرجع سابق، ص426،427.

لقد كان لتسلط النصارى على المسلمين بكافة أنحاء مصر فى وزارة بهرام أثر كبير فى ثورة المسلمين بدعم فقهاء السنة ضد بهرام، وقد قاد هذه الثورة رضوان بن ولخشي والي الغربية بعد مراسلة الأمراء والفقهاء له ونجح فى طرد بهرام وأصبح وزيرًا فى العام 530هـ[1]، وكان سنيا حسن الاعتقاد شجاعا مقداما قوى الغلب شديد البأس[2].

تولى رضوان بن ولخشى الوزارة وكان سنياً فقرب إليه فقهاء السنة الذين أشاروا عليه باستخدام المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النصارى، وطبق العهدة العمرية على النصارى فى زيهم وركوبهم، وزاد عليها منعهم من المرور على الجوامع وهم على دوابهم، ومنعهم من التكنى بأبى الحسن وأبى الحسين وأبى الطاهر[3].

كان الخليفة الفاطمى قد مجد عمل رضوان ابن ولخشى البطولى فى إزاحة بهرام بقوله فى منشور توليته الوزارة: "لأنك أذهبت عن الدولة عارها، وأمطت عن طريق الهداية أوضارها[4]". ثم يشيد الخليفة بعد ذلك بالوزير السنى رضوان بن ولخشى وبجهوده فى عزل بهرام وإعادة الأمن والأمان إلى الإسلام والمسلمين فيقول: "والإيمان لو تجسم لكان على السعى على شكرك أعظم مثابر، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيباً على المنابر[5]". ثم يلقبه بلقب ملك، وهو بذلك أى رضوان أول وزير يلقب بالملك على حد قول المقريزى[6].

---

(1) جان كلود جارسان: ازدهار وانهيار حاضرة مصرية قوص، ترجمة بشير السباعى، سينا للنشر، القاهرة، 1997م، ص72، 74 ؛ وانظر: على ابراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط4، 1954م، ص163.

(2) النويرى: نهاية الأرب، 302/28، 303 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ، 184/3.

(3) المقريزى: إتعاظ، 175/3،163. هناك كلام طويل بشأن العهدة العمرية وتضارب الروايات بشأنها، وهو ما نبهنا عليه فى غير ما لقاء علمى وقرظنا كتاب أستاذنا الدكتور عبادة كحيلة رحمه الله بخصوص هذا الشأن فليراجع ففيه من الفوائد ما فيه. أنظر: عبادة كحيلة: عهد عمر قراءة جديدة، دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة، ط1، 1996م.

(4) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص146.

(5) القلقشندى: صبح الأعشى، 343/8.

(6) أنظر: المواعظ، 305/2.

ساءت العلاقة بين رضوان بن ولخشى الوزير السنى وبين الخليفة الحافظ، لا سيما وأن رجال الخليفة الشيعة كانوا يطعنون فى مذهب رضوان السنى، وهو ما دفع الوزير بتخطيط من الفقيه السنى أبى الطاهر بن عوف أن يبنى مدرسة عرفت باسم الوزير فى ثغر الإسكندرية، وجعل ابن عوف مدرسا بها ليذب عن المذهب السنى ضد طعون الشيعة. كذلك قرر الوزير أن يتخلص من الحافظ فأعلن أنه ليس بخليفة ولا إمام وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح، وعاونه على ذلك الفقيه السنى النحاس، إلا أن الأمور انتهت لصالح الخليفة الذى نجح فى التخلص من هذا الوزير السنى الذى لطالما أرق مضجعه ووقف فى وجه مذهبه الشيعى الإسماعيلى[1].

ويبدو أن ثلة وزراء السنة السابقين شجعوا ابن السلار على أن يطلب منصب الوزارة لخطورته وأهميته فى السيطرة على الدولة الفاطمية فعندما تولى الظافر بالله سنة 544هـ /1149م، اتخذ الأميرَ نجم الدين أبا الفتح سليم بن مصال وزيراً، وكان ابن مصال قبلها يتولى منصب "ناظر الأمور أو المصالح"، فلم يُرّضِ هذا الاختيار علي بن السَّلار، الذي كان حينها والياً للإسكندرية والبحيرة.

كان ابن السَّلار سنيّاً شافعياً حريصاً على نشر مذهب أهل السنة والجماعة، الذي حاربه الفاطميون الإسماعيليون، كما قام بمحاربة الصليبيين، وفى ذات الوقت كان فيه من الشر والظلم والقسوة، والمصالح الخاصة، ما بيّنه الذهبيُ بقوله: "سيف الدين، أبو الحسن، علي بن السلار الكردي...وكان بطلاً شجاعاً، مقداماً مهيباً شافعياً سنيّاً، ليس على دين العبيدية، احتفل بالسِلفي وبنى له المدرسة، لكنه فيه ظلم وعسف وجبروت[2]".

اتفق ابن السّلار مع ابن زوجته، الأمير عباس الصنهاجي، والي الغربية، على الزحف نحو القاهرة، والضغط على الظافر ليوليه الوزارة بدلاً من ابن مصال، وفعلاً تمكن من إجبار الظافر على أن يوليه الوزارة، ثم أرسل إلى ابن مصال قوة عسكرية بقيادة عباس تمكّنت من تعقبه وقتله في شوال من سنة 544هـ /فبراير 1150م[3].

---

(1) المقريزى: إتعاظ، 3/167،166 ؛ وانظر: مصرية تعبان مهدى: الحياة الاجتماعية فى مصر الفاطمية، ص81.

(2) أنظر: سر أعلام النبلاء، 20/282.

(3) عطا عبدالرحمن: على بن سلار الوزير فى الدولة الفاطمية، حولية مجلة التربية والعلم، جامعة السليمانية، مجلد 16 عدد 4، 2009م، ص49،50.

حرص ابن السّلار على نشر مذهب أهل السنة، فأنشأ في سنة 546هـ /1151م مدرسة للشافعية في مدينة الاسكندرية، التي كانت تمثل آنذاك مركز المقاومة السنيّة للشيعة الإسماعيلية، سائراً بذلك على خطى الوزير رضوان الذي قام بإنشاء مدرسة في الإسكندرية أيضاً، لكن على المذهب المالكي، وأسند ابن السّلار إدارة المدرسة إلى الحافظ الشهير أبي طاهر أحمد بن محمد السّلفي[1]، وأدت هذه الخطوة إلى حقد الظافر ورجال دولته على ابن السّلار، فتعرض لكثير من المؤامرات، فاحتاط على نفسه برجال لحراسته، عُرفوا بصبيان الزرد[2]. كذلك اهتم ابن السلار ببناء المساجد فى دمياط والقاهرة، وإجراء نفقته الخاصة عليها فضلاً عن تقديم الخدمات العامة والخيرية للمحتاجين[3]. كما حرص ابن السلار على محاربة الصليبيين، فعمل على تقوية الجيش، واهتم بتحصين عسقلان، وإرسال الكتائب إليها، وكانت عسقلان آنذاك آخر مدينة يملكها الفاطميون في بلاد الشام.

ويعتبر ابن السّلار أوّل من حاول عقد اتفاق مع نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، أمير حلب، لعمل جبهة موحدة في مواجهة الصليبيين، ولإثبات حسن نيته، أرسل ابن السّلار في سنة 546 هـ /1151م قطعاً من الأسطول المصري إلى يافا، تمكّنت من أسر عدد من مراكب الصليبيين، وأحرقت ما عجزت عن أخذه، ثم توجه الجنود إلى عكّا وصيدا وبيروت وطرابلس حيث أبلوا بلاءً حسناً وقتلوا جماعة من الفرنج، وفي العام نفسه تأكد لابن السّلار أن الفرنج الصليبيين في طريقهم إلى الاستيلاء على عسقلان في أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية (يافا، عكا، بيروت...)، وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بإرسال مجموعات من الجند من مصر لحفظ عسقلان، وفي هذا المرة جاء الدور على عباس الصنهاجي، ابن زوجة ابن السلار، ليترأس هذه المهمة[4].

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 105/1 ؛ وانظر: السيوطى: حسن المحاضرة، 211/1.

(2) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 46/3،47.

(3) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 417/3 ؛ وانظر: عطا عبدالرحمن: على بن سلار، ص46.

(4) ابن ميسر: أخبار مصر:، ص144،145 ؛ وانظر: أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص276؛ عطا عبدالرحمن: على بن سلار الوزير، ص51،52.

خرج عباس إلى عسقلان، لكنه أحسّ أن اختيار ابن السلار له لهذه المهمة، يهدف إلى إبعاده عن مصر "بطيبها وحسنها ولذة المقام بها"، وأوغر بعض القادة المرافقين لعباس صدره على ابن السلار، وزيّنوا له قتله، وتولي الوزارة بدلاً منه، وأقنعوه بأن هذه الخطوة ستحظى برضى الظافر، بسبب كرهه لابن السلار، ومن جهة أخرى بسبب العلاقة الوثيقة التي تجمع بين الفائز، وبين نصر، ابن عباس الصنهاجي[1].

نجحت مؤامرة عباس في محرم من سنة 548هـ /أبريل 1153م، وتمكن ابنه نصر من قتل ابن السّلار وهو نائم على سريره، وفرح الظافر، بقتل ابن السّلار، ونكّل بجثته، وحُملت رأسه إلى القصر، ورُفعت ليراها الناس، ثم أمر بإيداعها بخزانة الرؤوس ببيت المال[2]. وعاد عباس إلى القاهرة سريعاً ليتولى الوزارة، ولم تمضِ مؤامرة قتل ابن السّلار بدون مقاومة، فقد تجمع أصحابه وأتباعه وثاروا على الظافر، الذي حاول تسكينهم ولم يثقوا بوعوده بمنحهم عفواً عاماً، ثم خرجوا من مصر إلى بلاد الشام خشية التنكيل بهم. وكذلك غضب أهل السنة في مصر لكنهم لم يتمكنوا من إعلان عدم الرضا خوفاً من بطش الظافر وعباس ونصر[3].

وكان مجلس السمر عند الوزير الصالح طلائع بن رُزيك يشتمل على انتقاص أصحاب النبى والسلف الصالح، وكان الفقيه الشافعى عمارة اليمنى جالساً فلما رأى ذلك خرج معتذرا وانقطع فى منزله ثلاثة أيام. فاستوحش ابن رزيك من غيبته، وكان يرسل إليه بالطبيب ظنا منه أنه مريض. فأعلمه الفقيه أنه لم يكن به وجع ولكنه كره ما جرى فى حق السلف فإن أمر الوزير بقطع ذلك حضرت وإلا كان فى الأرض سعة وفى الملوك كثرة. فعجب الوزير من ذلك. وقال: وسألتك بالله ما تعتقد فى أبى بكر وعمر ؟ فقال: أعتقد أنه لولاهما لم يكن سبق للإسلام حرمة ولا علا له راية، وما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه.

---

(1) ابن ميسر: أخبار مصر، ص146،147 ؛ وانظر: المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/204،205 ؛ أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص277 ؛ السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مصر الإسلامية، ص208.

(2) ابن ميسر: أخبار مصر، ص147.

(3) ابن ميسر: أخبار مصر، ص 147 ؛ وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 3/418 ؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا، 3/205 ؛ أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، ص277 ؛ عطا عبدالرحمن: على بن سلار الوزير، ص54،55.

ثم قرأ: "ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه" فضحك الوزير الشيعى[1]، ولا شك أن الوزير حرص على عدم إهانة أصحاب النبى بحضرة الفقيه عمارة، وليس أدل على ذلك من أن عمارة استمر فى حضور مجالس الوزير بعد ما قاله للوزير من ضرورة قطع سب السلف إن أحب أن يحضر عمارة مجلسه.

ورغم الجهد الذى قام به الفقيه الشافعى عمارة اليمنى فى الدفاع عن مذهب أهل السنة وأصحاب النبى، فإنه كان أحد فقهاء السلطان الذين يؤيدون الدولة الفاطميو ويدعمونها، ليل نهار وليس أدل على ذلك من شعره:

أفاعيلهم فى الجود أفعال سنة ... وإن خالفونى فى اعتقاد التشيع[2].

وقد لعب القاضى الفاضل دوراً مهماً فى توسيد أمر الوزارة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، وهو ما يذكره المقريزى صراحة بقوله: " وكتب القاضى الفاضل إلى نور الدين محمود بن زنكى كتاباً بأن يقر شيركوه عنده بمصر وأنه فوض إليه الوزارة وأمر الجيوش [3]"، ويمكننا أن نفسر سبب قتل الوزير الفاطمى شاور للقاضى والفقيه رشيد الدين أحمد بن القاضى رشيد الدين على بن إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير الأسوانى من خلال سخط القاضى على الوزير شاور، وميله إلى أسد الدين شيركوه ودعمه إياه[4].

ويجب أن لا ننسى أيضاً أن الطريق فتح لأسد الدين شيركوه بعد الحملة النورية الثالثة على مصر حيث دخل القاهرة يوم الأربعاء السابع من ربيع الآخر سنة 564 هـ؛ فتلقَّاه الخليفة العاضد، وخلع عليه خلعاً كثيرة، وأعطاه هدايا عظيمة، وأُجريَتْ عليه وعلى عساكره الجِرايات الكثيرة والإقامات الوافرة[5] كما أنَّ الوزير شاوَر أظهَرَ له وُدًّا كثيراً[6]؛ لما رأى من

---

[1] المقريزى: اتعاظ الحنفا، 3/250،249.

[2] عطية مصطفى مشرفة: نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين، دار الفكر العربى، ط1، 1367هـ /1948م، ص113.

[3] أنظر: أتعاظ الحنفا، 3/303.

[4] أبوشامة: الروضتين فى أخبار الدولتين، تحقيق محمد حلمي ومحمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1962م، قسم2، 1/376،375 ؛ وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 1/52،51 ؛ المقريزى: إتعاظ الحنفا، 3/288، 289.

[5] ابن الأثير: الباهر، تحقيق عبد القادر طليمات، القاهرة، 1382 هـ، ص139؛ وانظر: أبو شامة: الروضتين، قسم 2، 1/435.

[6] ابن خلكان: وفيات الأعيان، 7/150.

قوَّتِه ومَيْل العاضد نحوه، ويصوِّر لنا ابن شدَّاد المشهد بقوله: "وأقام أسد الدين بها – بالقاهرة – يتردَّد إليه شاوَر فى الأحيان، وكان وَعَدَهم بمالٍ فى مُقابلة ما خسروه من النفقة؛ فلم يوصِل إليهم شيئًا، وعلقت مخاليب أسد الدين فِي البلاد، وعلِموا أنَّ الإفرنج متَى وجدوا فرصةً أخذوا البلاد، وأن تردَّدهم إليها فِي كل وقت لا يفيد، وأنَّ شاوَر يلعب بهم تارةً، وبالإفرنج تارةً أخرى، ومِلاكها كانوا على البدعة المشهورة عنهم، وعلِموا أنَّه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاوَر، فأجْمعوا أمرهم على قبضه إن خرج إليهم[1]"، ولقد أدرك الوزير شاوَر هذا الأمر، وأنَّ طموح أسد الدين لن يتوقَّف عند هذا الحدِّ؛ ففكَّر في التخلُّص منه وهو ما صرِّح به ابن الأثير[2].

لم يتردَّد الخليفةُ العاضد في تولية أسد الدين شيركوه الوزارة ؛ حيث خلع عليه وقلَّده الوزارة ولقبه بالملك المنصور أمير الجيوش، وأصدر منشورًا بذلك قُرِئَ على رؤوس الأشهاد[3]، وصفه فيه بأنه حزب الله الغالب وشهاب الدين الثاقب، لنجاحه فى هزيمة شاور وقتله[4]، ومن ثم فإنه فى المنشور يقلد أسد الدين أمور الدولة جميعاً، ثم يوصيه بالعساكر المنصورة، وبالرعية، وهذه التوصية جاءت فى محلها إذ إن الشعب المصرى قد قاسى متاعب عديدة خلال السنوات التى شهدت الصراع بين قوى الصليبيين وقوى نور الدين محمود فى سبيل الاستيلاء على مصر، والذى انتهى بانتصار شيركوه وتوليته الوزارة[5].

استولى أسد الدين على دار الوزارة يوم الأربعاء السابع عشر من ربيع الآخر عام 564 هـ[6]، ولا شك أن الخوف سيطر على نور الدين من أن يَميل أسد الدين شيركوه إلى الفاطميين ومذهبهم من جراء هذا الإجراء، وأن يفسد جنده عليه بسبب ذلك[7]، ومن ثم

---

(1) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، مكتبة المؤيد، القاهرة، 1317هـ، ص39.

(2) أنظر: الكامل فى التاريخ، 9/101.

(3) أنظر: نص المنشور فى الملاحق.

(4) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص171.

(5) نفسه، ص172،173.

(6) ابن واصل: مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب، تحقيق حسنين محمد ربيع، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1973م، 1 / 164، 165 ؛ وانظر: ابن أيبك الصَّفَدي: الوافي بالوفيات، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 16/ 97 ؛ القلقشندي: صبح الأعشى، 10/ 80.

(7) أبو شامة: الروضتين، قسم 2، 1/437.

فقد طلب نور الدين من العاضد إرجاعَ أسد الدين؛ لأنه في أمسِّ الحاجة إليه في حربه ضدَّ الصليبيين، وقد أوضح ذلك في رسالته للعاضد؛ حيث قال: "وقدِ افتقر العبد إلى بعثته، وأعوز عسكره يُمْن نقيبته، واشتدَّ حزب الضلال على المسلمين لغَيْبَتِه، لأنه ما زال يرمي شياطين الضلال بشهابه الثاقب، ويصمي معقل الشرك بسهمه النافذ الصائب[1]".

ونتيجة لقِصَر مُدَّة وزارة أسد الدين شيركوه فلم يغيِّر شيئًا من تنظيماتِ الدولة الفاطمية، وأبقى أصحاب الوظائف على قواعدهم وأمورهم[2]؛ بحيثُ إنَّ وزارته لم يكن لها أثرٌ يُذكر على الخلافة الفاطمية إذ توفى بعد شهرين وأيام من تولِّيه الوزارة[3]، ورغم ذلك فيكفيه أنه وطأ الأمور لابن أخيه صلاح الدين، الذى بز كأحد أفراد الحملة التى قادها عمه شيركوه، واستطاع أن يصل إلى منصب الوزارة وينفذ ما كان فى ذهن عمه من إسقاط الدولة الفاطمية.

ولعل وصف بعض المصادر لأسد الدين شيركوه بأنه: "كان شجاعًا، بارعًا، قويًّا، جَلْدًا في ذات الله، شديداً على الكفار وطأته، عظيمة في ذات الله صولته، عفيفًا، ديِّنًا، كثير الخير، وكان يحبُّ أهل الدين والعلم، كثير الإيثار[4]"، تجعلنا نتخيل بعض ما حققه خلال الشهرين من إنجازات لم يتيسر للمصادر أن ترصدها، أو حتى بعض الأفكار التى ناقشها مع رجاله بشأن الحياة العلمية والمذهبية وأوضاع المصريين وخلافه.

شغر منصب الوزارة بعد وفاة أسد الدين شيركوه، ووقع اختلافٌ بين كبار القوَّاد في الحملة النورية، وبدأ التنافس بينهم للفوز بِهذا المنصب، وبرز مجموعةٌ من هؤلاء الأمراء وهم: عين الدولة الياروقي، وشهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين، وسيف الدين علي بن أحمد الهكَّاري حفيد صاحب قلاع الهكَّارية، ولكنَّ صلاح الدين الأيوبي فاز بهذا المنصب؛ حيث أرسل إليه الخليفة العاضد وأمره بالحضور، فخلع عليه خلعة الوزارة، وولاَّه الأمر بعد عمِّه في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة 564 هـ[5]، ويقال إن

---

[1] نفس المصدر والمكان والصفحة.

[2] نفسه، قسم 2، 1/463.

[3] ابن شداد: النوادر السلطانية، ص40 ؛ وانظر: الصَّفَدي: الوافي بالوفيات، 16 /215.

[4] أبو شامة: الروضتين، قسم 2، 1/438.

[5] نفسه، قسم 2، 1/439.

شيركوه كان قد أوصى بالأمر من بعده لصلاح الدين[1]، ويشير منشور تولية العاضد لصلاح الدين والذى كتبه القاضى الفاضل إلى أسباب تولية صلاح الدين الوزارة فيرجعها إلى مكانة صلاح الدين عند عمه، وشجاعته الفائقة فى الحروب[2]، وأياً ما كان الأمر فإن ابن الأثير يرجع خلع العاضد على صلاح الدين بالوزارة إلى ضعف الأخير؛ حيث يقول: "وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين[3]"، في حين يعارضه ابن أبي طيٍّ فيقول: "كان صلاح الدين قد وقع من العاضد بموقع، وأعجبه عقله، وسداد رأيه، وشجاعته، وإقدامه على شاوَر في موكبه[4]".

أصدر الخليفة العاضد منشوراً بتولِّي صلاح الدين الوزارة في مصر، وقرئ المنشور بين يدَيْ صلاح الدين يومَ جُلُوسه في دار الوزارة، ولقَّبه العاضد بالناصر[5]، وقد فوَّض الخليفة العاضد لصلاح الدين حكمَ الدولة الفاطمية؛ حيث قلَّده تدبير مملكته، والقيام بِخِدمته، والاضطلاع بشؤون الوزارة، كما جعله مقدَّمًا للجيوش ومسئولاً عن الجهاد، وحكَّمه في القضاء والدُّعاة، كما أسند إليه إدارة مالية الدولة وسياسة الرعية[6].

سار صلاحُ الدين في الوزارة سيرةً حسنةً منتهجاً سياسةً ترضي نور الدين محمود السنى ولا تغضب الخليفة العاضد الشيعى، واستمال قلوبَ الناس، فبَذَلَ الأموال، وملك الرجال، وهانت الدنيا في عينيه؛ فتعلَّقت به الرعيَّة وأحبَّه الجميع، فكان الخليفة يَميلُ إليه كثيرًا، وحكَّمه في ماله وبلاده، كما أنَّ نور الدين كان يَحترمه ويلقِّبه في المُكاتبة بالأمير الأسفهلار، ويُوصي أُمراءَهُ ورِجاله باحترامه وإجلاله [7].

وتجدر الإشارة إلى أن الفقهاء من أهل السنة وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكارى لعبوا دورا مهما فى تثبيت صلاح الدين الأيوبى فى الوزارة إذ إنه بمجرد تسلم صلاح الدين للوزارة

---

(1) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 5/354.

(2) الشيال: مجموعة الوثائق الفاطمية، ص175.

(3) أنظر: الكامل فى التاريخ، 9/102.

(4) نقلاً عن أبى شامة: الروضتين، قسم 2، 1/439.

(5) نفس المصدر والمكان والصفحة.

(6) القلقشندى: صبح الأعشى، 10/91-98.

(7) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص 40

من قبل الخليفة الفاطمي العاضد اعترض كبار الأمراء، وهنا تدخل الفقهاء وعلى رأسهم الفقيه عيسى الهكارى (ت 585هـ) ونجحوا فى إقناع الأمراء المعارضين، ومن ثم أصبح صلاح الدين وزيراً بمعاونة الفقهاء، ومن ثم رأيناه فى العام 565هـ ينعم على الفقيه عيسى الهكارى بمنصب قاضى القاهرة[1]، كذلك عاون الفقهاء وعلى رأسهم القاضى الفاضل صلاح الدين فى إبطال شعائر الشيعة فى الآذان بحى على خير العمل محمد وعلى خير البشر، كما عاونوه فى ذكر أسماء الخلفاء الراشدين أبى بكر وعمر وعثمان وعلى فى الخطبة يوم الجمعة، ونجح الفقهاء كذلك فى تنفيذ مخطط صلاح الدين بذكر العاضد فى الخطبة بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطباء يقولون: " اللّٰهم أصلح العاضد لدينك" ولا يزيدون على ذلك[2].

ولما أيقن صلاح الدين أن سلطانه قد استقر، وجه اهتمامه للقضاء على المذهب الشيعي في مصر، وكان صلاح الدين فقيها بجانب كونه وزيراً فعزل قضاة الشيعة وولى قاضى القضاة صدر الدين عبدالملك بن درباس الهدبانى الشافعى، وأنشأ فى سنة 566 هـ مدرسة لتدريس المذهب الشافعي، وأخري لتدريس المذهب المالكي[3]، وذلك عملاً بمشورة القاضى الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني العسقلاني؛ وقد لخص المقريزى جهود القاضى الفاضل فى إسقاط الدولة الفاطمية بقوله: "واستعان صلاح الدين به – أي بالقاضي الفاضل – على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية حتى تم مراده، فجعله وزيره ومستشاره[4]".

الجدير بالذكر أن صلاح الدين بعد توليه الوزارة وجد نفسه محاطاً بمجموعة من رجال العاضد الشيعة، ومن ثم لكى يتيسر له تنفيذ مشروعه بالقضاء على الدولة الفاطمية الشيعية

---

(1) المقريزى: إتعاظ، 318/3 ؛ وانظر: ابن خلدون: العبر،103/4 ؛ أبو اليمن العليمى: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق عدنان يونس عبد المجيد نباتة، مكتبة دنديس، عمان، 143،144/2 ؛ عبدالعزيز سيد الأهل: أيام صلاح الدين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 1384هـ/1964م، ص69.

(2) المقريزى: إتعاظ، 317،318/3 ؛ وانظر: هادية شكيل: القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني العسقلاني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت،ط2، 1999م، ص137.

(3) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 319/3.

(4) أنظر: المواعظ والاعتبار، 266/2.

فقد ألقى القبض على أمراء الدولة، وأقامة أصحابِه عوضاً عنهم، وأَخَذَ يُغْدِقُ على أعوانه ويَمْنحهم الإقطاعات، ويضيِّق على حاشية الخلافة ويمنع عنهم، "فلم يزل أمرُه في ازديادٍ وأمرُ العاضد في نقصان[1]"، ومن الطبيعي أن يستاء رجال القصر الفاطمي من هذا التدبير، ويفكِّرُوا في التخلُّص من صلاح الدين بعد أن أصبح يمثِّل خطرًا عليهم وعلى دولتهم، وكان أبرز هؤلاء الرِّجال في ذلك الوقت جوهر، الملقَّب بمؤتمَن الخلافة، الذي بدأ في تدبير حركةٍ ضدَّ صلاح الدين استعان فيها بالصليبيين ليهاجِمُوا مصر من الخارج ويثور هو في الداخل، ولقد كانت هذه الحركة من العقبات الخطيرة التي كادت تودي بصلاح الدين الذي علم بِهذه الاتصالات حينما قبض رجاله على رسولٍ من مؤتمَن الخلافة يحمل رسالةً للصليبيين، ورغم ذلك فقد أبقى هذا الأمر سرًّا حتى ينفرد بجوهر ويقبِضَ عليه مُنفردًا؛ لعلمه بكثرة أعوانه من الجند السودان[2]. وتم القبض على مؤتمَن الخلافة في ذي القعدة سنة 564 هـ، وقُتل من حينه؛ فتخلَّص صلاح الدين بذلك من العقبة الأولى التي واجهته[3].

لم ينته الخطر بزوال جوهر، ذلك أنَّ أعوانه من السودان قد ثاروا لمقتله، وانضمَّ إليهم عددٌ كبيرٌ من العامَّة والأُمَراء؛ حتَّى زاد عددُهم على خمسين ألفًا، والتقى بِهم صلاح الدين في معركة غير متكافئة من ناحية العدد، وكادوا يفتكون به، لولا لجوؤه إلى الخديعة، فأمر بإحراق محلَّتهم، وتتبَّعهم بجنده حتى أخرجوهم إلى الجيزة، ثم لحق بهم أخوه تورانشاه بن أيوب، فقتل منهم مَقْتَلَةً عظيمةً، ولم يبقَ منهم إلا أعدادٌ قليلة[4]، ولقد ساعد موقف الخليفة العاضد من هذه الثورة صلاحَ الدين؛ ذلك أنَّ الخليفة وقف في أوَّل الأمر مع السودان؛ ظانًّا أنَّهم سيَظْفَرُون بصلاح الدين، بل إن المصادر تذكر مشاركة رجاله في المعركة حيث كانوا يرمون عساكر صلاح الدين من القصر بالنِّشاب والحجارة، فلمَّا علم بذلك صلاح الدين أمر رجاله بإحراق المنظرة التي يُطل منها الخليفة؛ فأدرك العاضد قوَّة مركز صلاح الدين، فأمر أحد

---

(1) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 1/258.

(2) نفسه، 2/2 ؛ وانظر: جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية فى مصر، ص132.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، 1/ 176 ؛ وانظر: المقريزي: اتعاظ الحنفا،3/ 312 ؛ جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ص12 ؛ عفاف صبره: بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، مجلة الدارة السعودية، 1408 هـ/ 1987 م، عدد 2، ص140.

(4) ابن الاثير: الكامل، 9/103،104.

رجاله بالمناداة في جند صلاح الدين بقوله: "أمير المؤمنين يسلِّم على شمس الدولة – توران شاه – ويقول: دونكم والعبيد الكلاب؛ أخرِجُوهُم من بلادكم"، ولقد أثَّر هذا على السودان وأدَّى إلى هزيمتِهم[1].

أضعفت هذه الواقعة بلا شك الخليفة العاضد، وجعلتْهُ بلا جندٍ ولا أعوان، في حين قويَ أمرُ صلاح الدين، وولَّي أعوانه الوظائف المهمة في الخلافة، وجعل بهاء الدين قراقوش مسئولاً عن القَصْرِ يحرسه ويصون ذخائره، فلا يجري صغيرٌ ولا كبيرٌ إلا بأمره، ولم يتمكن أحد من أولئك المتآمرين من أخذ شيء من ذخائره على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وإمكان إخفائها[2]، واستمرَّ في التخلُّص من بقية العناصر المناوئة له، فقضى على حرس الخليفة من الأرمن، حتى لا يَفْعَلُوا مثل ما فعل السودان[3].

والجدير بالذكر أنَّ الجزء الآخر من مؤامرة مؤتمَن الخلافة – والمتمثِّل في الخطر الصليبي – لم يَنتَهِ بمقتله والقضاء على أعوانه، وذلك أنَّ الصليبيين قد هالهم سقوطُ مصر في يد صلاح الدين، ويصف ابن شداد الأمر بقوله: "ولمَّا علِم الفرنج ما جرى من المسلمين وعساكرهم، وما تمَّ للسلطان من استقامة الأمر في الديار المصرية – علِمُوا أنَّه يَملِكُ بلادهم، ويخرِّب ديارهم، ويقلع آثارهم؛ لما حدث له من القوة والمُلْك[4]"، وهكذا بدأ الملك عموري ملك بيت المقدس حلمه لتأليب ملوك أوروبا ضدَّ صلاح الدين ورجاله، فأرسل الرسل إلى ملوك ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وصقلية يستحثُّهم للقيام بِحملةٍ صليبيةٍ ينقذون بها صليبيِّي الشرق، ولأن الظروف في أوروبا لم تسمح للقيام بِهذه الحملة – فقد اتَّجه عموري نحو الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين، الذي أظهر استجابته لشدة مخاوفه التى لم تكن أقل من مخاوف عمورى ذاته[5].

---

(1) أبو شامة: الروضتين، قسم 2، 452/1.

(2) عبداللطيف حمزة: ثلاث شخصيات فى التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007م، ص351،352 ؛ وانظر: عفاف صبره: بهاء الدين قراقوش الوزير المفترى عليه، ص140.

(3) أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم، دار المعارف، القاهرة، ط1، 48/3 ؛ وانظر: المقريزى: المواعظ والاعتبار، 48/2.

(4) أنظر: النوادر، ص41.

(5) ابن واصل: مفرج الكروب، 180/1 ؛ وانظر: جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، دار الفكر، القاهرة، ص247 ؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،2/ 711.

هاجَمَتِ السفن البيزنطية ميناء دمياط في صفر سنة 565هـ، في حين وصلها عموري عن طريق البرِّ، وما أن علِمَ صلاح الدين بِهذه المؤامرة حتى استعدَّ وأرسل النَّجدات إلى دمياط، وشحنها بالعتاد والرِّجال، وعهد إلى خاله شهاب الدين وابن أخيه تقى الدين عمر بمشئولية الدفاع عن المدينة، ووعدهم بإرسال المزيد من الجند والسلاح[1]، وأرسل إلى نور الدين يستنجِدُ به فأرسل له المَدَدَ، كما أنه أخذ يُهاجم المعاقل الصليبية في الشام، مِمَّا فتَّ في عَضُد الصليبيين، وأدركوا صعوبة تحقيق أحلامهم في هذه المرحلة، وبعد خَمسين يومًا من الحصار غير المُجدي انسحب الصليبيُّون يَجرُّون أذيال الخيبة[2]، فكانوا على حدِّ تعبير ابن الأثير: "كالنعامة خرجت تريد قرنَيْن؛ فعادت بلا أذنَيْن[3]"، ومنذ ذلك الحين أصبح صلاح الدين هو صاحب المبادرة في الجهاد ضد الصليبيين؛ أي إنه تحوَّل إلى موقف الهجوم؛ ففي سنة 566 هاجم عسقلان وهزم الفرنج وفتح أَيلَة[4]؛ فحقَّق بذلك أوَّل نصرٍ على الصليبيين خارج مصر.

لم يكن صلاح الدين منذ أن وسد إليه أمر الوزارة يستطيع أن يقوم بما قام به من أعمال دون أن يكون له ظهير من أهله ومن الشعب، ومن ثم فقد استدعى أهله وأقرباءه من الشام إلى مصر، ورتبهم في المناصب المهمَّة في الدولة؛ ليكونوا عونًا وسندًا له ضدَّ الخلافة الفاطمية وما بقي من أعوانِها، وقد أرسل إلى نور الدين يطلب منه أن يُسيِّر إليه إخوته، وتردَّد نور الدين في أوَّل الأمر ولم يستجب لصلاح الدين، وكان مبعث ذلك خوفه أن يخالف أحدٌ منهم عليه فتضطرب أحوال مصر، ولهذا نراه يُوصي توران شاه بن أيوب أخا صلاح الدين الأكبر قبل سفره لمصر بقوله: "إن كنتَ تسير إلى مصر، وتنظر إلى أخيك أنه يوسف الذي كان يقوم في خدمتك وأنت قاعدٌ - فلا تَسِر؛ فإنَّك تفسد البلاد، وأُحضرك حينئذٍ وأُعاقبك بما تستحقُّه، وإن كنت تنظر إليه أنَّه صاحب مصر وقائمٌ فيها مقامي وتخدمه بنفسك كما تخدمني

---

(1) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 7/6 ؛ وانظر: صفاء عبدالحافظ: الموانى والثغور المصرية، ص75.

(2) صفاء عبدالحافظ: الموانى والثغور المصرية، ص75،76.

(3) أنظر: الكامل، 105/9.

(4) ابن خلدون: العبر، 284/5.

– فسِرْ إليه واشدُدْ أزره، وساعِدْهُ على ما هو بصدده! فقال: أفعلُ معه من الخدمة والطاعة ما يتَّصل بك خبره – إن شاء الله تعالى[1]".

استفاد صلاح الدين من أخيه توران شاه؛ فكان بمثابة الساعد الأيمن له في إخماد الثورات الداخليَّة، وجهاد الفرنج، وتثبيت دعائم الدولة، وتوسيع رُقْعَتِها، ومن ثم فقد أقطعه قوص وأسوان وعيذاب[2]. كما أرسل صلاح الدين في سنة 565 هـ إلى نور الدين يطلب منه إرسال والده نجم الدين إلى مصر، فاستجاب لذلك وجهَّزه وأكرمه، ولمَّا سار من دمشق خشيَ نور الدين عليه وعلى مَنْ معه من هجمات الفرنج؛ فسار معهم وحاصر الكرك، وأشغل الصليبيين حتى وصل نجم الدين القاهرة في رجب من سنة 565 هـ[3].

عمل صلاح الدين خلال وزارته على تقوية المذهب السُّني وذلك بإنشاء المدارس السُّنِّيَّة على المذاهب الأربعة، وكانت أوَّل مدرسة هي المدرسة الناصريَّة الشافعيَّة، التي أنشأها سنة 566 هـ؛ حيث استغلَّ دار المعونة التي كانتْ سجنًا للفاطميين فهدمها وحوَّلها إلى مدرسة، وهي أوَّل مدرسة سُنِّيَّة تُقام في الدولة الفاطمية؛ فكان ذلك من أعظم ما نَزَلَ بالدولة، أمَّا المدرسة الثانية فتُعرف بالمَدرسة القَمْحِيَّة، وكان موضعها مكاناً يُباع فيه الغزل؛ فهدمها الناصر صلاح الدين وبنى مدرسةً خصَّصها للمالكيَّة، وكان يتولَّى فيها التدريس أربعةٌ من علماء المالكيَّة خُصِّص لهم قمحٌ يُفرَّق عليهم؛ فعُرفت بالقمحية، أما المدرسة الثالثة فهي المدرسة السُّيوفيَّة، وقد وَقَفَهَا صلاحُ الدِّين للمذْهَبِ الحَنَفِي، وجعل فيها مُدرِّسًا، وأوقف لَهَا أوقافًا جليلةً، وعُرِفَتْ بِهذا الاسم لكوْن سوق السُّيوفيين على بابها[4].

وقدِ اقتدى أبناءُ البيت الأيُّوبيِّ وأمراء الحملة الزِّنْكيَّة بِصلاح الدين؛ فأخذوا ينشؤون المدارس السُّنية في كُلِّ مُدُنِ مصر، وبخاصَّةٍ القاهرة والإسكندريَّة.ففي شهر شعبان سنة 566 اشترى تقيُّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب – وهو ابنُ أخي صلاح الدين – منازلَ

---

(1) أنظر: الباهر، ص143.

(2) أبو شامة: الروضتين، قسم 2، 466/1.

(3) ابن واصل: مفرج الكروب، 185/1.

(4) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 263/2-265.

العزِّ بالقاهرة، وهي من دُور الخُلفاء الفاطميِّين، وحوَّلها إلى مدرسة خصَّصها للشافعيَّة، كما أسَّس بالفيُّوم مدرستَيْنِ؛ واحدة للشافعيَّة وأخرى للمالكيَّة[1].وكان لكل ما سبق أثره فى اختفاء مذهب الشِّيعة ومعتقدهم من نفوس المصريين، وخاصَّةً بعد القضاءِ على مَجالس الدعوة التي كانت من أقوى الوسائل في نشر المذهب الشيعي بين الناس.

وفى إطار تنفيذ صلاح الدين لمشروعه بالقضاء على الدولة الفاطمية ومذهبها إبَّان وزارته وجدناه يعَزْل القضاة الشيعة، ويعين بدلاً منهم قضاةً من المذهب السُّني، وجعْل القاضي صدر الدين بن درباس الشافعي مسئولاً عن القضاء والحكم في مصر وأعمالها[2]، كما أشرنا منذ قليل، وهكذا لم يبقَ من الخلافة الفاطميَّة إلاَّ اسْمُها، وزالتْ كلُّ مظاهِرِ التَّشيُّع والدَّعوة، وأصبح إسقاط الخلافة أمراً وسَهلاً؛ بِحَيْثُ لم يبقَ من معالمها سوى ذكر اسم العاضد في الخطبة، والتي أصبح يُشارِكُه فيها نور الدين محمود بذكر اسمه بعد اسم العاضد، وبعدما أصبحت الظروف مواتيةً لإعلان سقوط الخلافة الفاطمية – شرع صلاح الدين في تنفيذ ذلك في أوَّل جُمعة في عام 567 هـ، وقد أشار ابن الأثير إلى أن الذي تولَّى ذلك رجلٌ أعجميٌّ يُعرف بالأمير العالم، حيث يُذكر أنَّه صعِد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفةِ المستضيء العبَّاسيِّ، وأنَّ الخليفة العاضد كان مريضًا فتُوفي يوم عاشوراء، ولم يعلم بقطع الخطبة له[3]، و يذكر أبو شامة أنَّ الذي تولَّى ذلك هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الحسين ابن أبي الضياء البعلبكي[4]، وإلى نفس قوله يذهب ابن إياس ويضيف إلى ألقابه لقب العلويَّ[5].

ويفصل ابن أبي طيٍّ الحلبي في أمر سقوط الخلافة الفاطمية، ويذكر رواية مختلفة عن غيرها من الروايات جاء فيها: أنَّ الخليفة العباسي المستضيء ألحَّ على نور الدين بقطع الخطبة للفاطميين في مصر، وأنَّ نور الدين راسل صلاح الدين في ذلك، ولكنه كان يعتذر باضطراب

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 456/3.

(2) نفسه، 242/3.

(3) أنظر: الباهر، ص156.

(4) أنظر: الروضتين، قسم 2، 492/1.

(5) أنظر: بدائع الزهور، قسم 1، 235/1.

أمور مصر وعدم استقرارِها، وأنَّ الأمر إن لم يُؤخذ على التدريج فَسَدَت الأحوال، وأسند صلاح الدين هذه المهمَّة لوالده نجم الدين أيوب، واتَّصل نجم الدين بالخطيب وأمره بالدعاء للخليفة المستضيء وحَذْفِ اسم الخليفة العاضد، وذلك من أول جُمُعةٍ من سنة 567هـ، ومع أنَّ الخطيب لم يذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة إلا أنه حذف اسم الخليفة العاضد؛ فلما جاءت الجمعة الثانية دعا له، فسقطت الخلافة الفاطميَّة، ومات الخليفة العاضد متأثِّرًا بذلك[1]؛ وهكذا سقطت الخلافة الفاطمية، دون أن يَنْتَطِحْ فيها عَنْزان على حد قول ابن الأثير[2]؛ وكان لسقوطها صدى واسعاً فى العالم الإسلامي بشكلٍ عام ومصر والشام بشكلٍ خاصٍّ وزُفَّتِ البُشرى تُقرأُ في كُلِّ مكانٍ، وفي بغداد كان الفرح عظيمًا، فخرج الناس وعلى رأْسِهم الخليفة لتلقِّي الرُّسل والبشارة، وكان يومًا مشهودًا، ونظم الشعراء القصائد، وألف العلماء الكتب تخليدًا لهذا الحدث[3]، وتزيد أهل السنة بمصر وخارجها فى الفرح حتى أن ابن الجوزى الحنبلى يعبر عن ما فعله صلاح الدين من إسقاط الخلافة الفاطمية بقوله: " وقد ألفت فى ذلك كتاباً سميته النصر على مصر [4]".

---

[1] نقلا عن أبى شامة: الروضتين، قسم 2، 1/499،498.

[2] أنظر: الكامل، 9/111.

[3] الذهبى: دول الإسلام، تحقيق: فهيم شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم، 1974 م القاهرة، 2/80.

[4] نقلا عن ابن كثير: البداية والنهاية، 12/784.

المبحث الثالث: أهل السنة ومنصب القضاء

أبقى الفاطميون فى السنوات الأولى لحكمهم بمصر على القضاة السنيين, حتى لا يحدث إضطراب أو تذمر نتيجة لفرض الحكم وفقاً للمذهب الشيعى فجأة أو بالقوة, ولعل هذا يفسر لنا السر فى إبقاء جوهر على القاضى أبى الطاهر الذهلى السنى فى منصبه حتى وفاته[1]، ولكنه من ناحية أخرى بدأ يقلص من سلطات القاضى السنى فقبض منه الأحباس وردها لغيره[2] ثم عمل على إضعاف المذهب السنى, والتقاضى على أساس حكمه, وشجع على نشر المذهب الشيعى, إلى أن ألزم القضاة السُنة بالحكم فى القضايا طبقاً لأصول المذهب الشيعى؛ وجعل للمغاربة الشيعة بمصر قاضياً يعرف بقاضى المغاربة[3].

لقد حاول القاضى أبو الطاهر محمد بن أحمد الذهلى السنى أن يكون على صلة بنظام الحكم الجديد بأى طريقة، ومن ثم رأيناه يعمد إلى التعريض كى يحتفظ بمنصبه فعندما ذهب لتهنئة المعز على وصوله مصر سأله المعز: كم رأيت من خليفة ؟ فقال القاضى: "ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله – صلوات الله عليه-" فاستحسن المعز منه ذلك على البديهة، رغم علمه أن القاضى رأى من خلفاء السنة العباسيين المعتضد والمكتفى والمقتدر والقاهر والراضى والمتقى والمستكفى والمطيع[4] ثم قال له: أحججت ؟ قال: نعم، قال: وسلمت على الشيخين ؟ يقصد ابا بكر وعمر. قال: شغلني عنهما النبي صلى الله عليه سلم كما شغلني أمير المؤمنين عن ولي عهده، فازداد به المعز إعجابا، وتخلص من ولي العهد إذ لم يسلم عليه بحضرة المعز، فأجازه المعز يومئذ بعشرة آلاف درهم[5].

الجدير بالذكر أن مخطط جوهر الصقلبى الذى كان فى ذهنه سلفاً بأمر من المعز طبق أيضا على القضاء إذ وجدنا المعز يشرك مع أبى الطاهر الذهلى قاضياً شيعياً إسماعيلياً هو على

---

(1) السخاوى: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص173.

(2) المقريزى: إتعاظ، 121/1

(3) أنظر: إتعاظ الحنفا، 143/1.

(4) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 137/1.

(5) الذهبى: سير أعلام، 207/16.

بن النعمان[1]. ومع ذلك كان الذهلى يعترض على بعض الأحكام التى من شأنها أن تصطدم بمعتقده السنى، ومن ذلك أن المعز طلب إلى قضاته أن يورثوا البنت جميع الميراث إذا لم يكن معها أخ أو أخت. غير أن القاضى الذهلى اعترض على ذلك بحكم سنيته[2].

وقد حرص كثير من الخلفاء الفاطميين على إرضاء القضاة ومنحهم مرتبات مرتفعة حتى يتنزهوا عن تقاضى أموال من الرعية، ورغم نجاح الفاطميين فى تحويل القضاء من المذهب السنى إلى المذهب الشيعى بعد وفاة القاضى أبى الطاهر محمد بن أحمد الذهلى، فإنهم لم يستطيعوا أن يجعلوا منصب القضاء قاصراً على الشيعة، ومن ثم وجدنا لفقهاء السنة دورا مهما فى استرداد هيبتهم لا سيما فى ثلاثينيات القرن السادس الهجرى عندما عرضوا على القاضى أبى العباس أحمد بن الحطيئة منصب قاضى القضاة اشترط أن لا يحكم بمذهب الدولة الشيعى[3]، ورغم عدم تمكينه من ذلك إلا أن اشتراطه لما اشترطه فى حد ذاته كان تحولا خطيراً لصالح السنة.

وتجدر الإشارة إلى أن فقهاء السنة كان لهم دور قوى فى تطبيق أحكام الشريعة إذا تخاذلت الدولة الفاطمية وقضاتها الشيعة، ومن ذلك أن أحد رجال أهل الذمة كان قد أسلم ثم ارتد عن الإسلام وعاد لدينه القديم، وكان قد تجاوز الثمانين من عمره، وهنا ثارت ثائرة الفقهاء من أهل السنة، وقدموا احتجاجا بضرورة تطبيق حد الردة عليه وهو القتل للقاضى الشيعى محمد بن النعمان، والذى رفعه إلى العزيز بالله. فأمر بتسليم المرتد إلى صاحب الشرطة، وطلب من القاضى أن يرسل إليه أربعة شهود ليتوب أمامهم، فإن تاب منحه الشرطى مائة دينار، وإن أصر على كفره قتل فى الحال. وقد اصر الرجل على كفره فأمر القاضى بقتله والقيت جثته فى النيل[4].

كذلك عندما رفعت فتوى إلى القاضى الحنبلى أحمد بن أبى العوام وجاء فى صدرها: "باسم الحاكم الرحمن الرحيم" اعترض على الحاكم وأوقفه عند حده، ولما رأى ابن أبى

---

(1) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 225/1.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص315.

(3) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 172/3.

(4) المقريزى: المقفى الكبير، تحقيق محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامى، 349/7.

العوام ظلما من الشهور وزورا عزلهم وأسقط شهادتهم فى العام 409هـ. فتظلموا للحاكم فقال لهم: "الذى عدكم هو الذى أسقطكم"، ولم يستطع الحاكم أن يغير قرار القاضى[1].

وقد حاولت الدولة الفاطمية أن تسترضى فقهاء الشافعية بتوسيد أمر القضاء إلى أحدهم وهو القاضى أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت454هـ/ 1062). المولود بمصر في أواخر القرن الرابع الهجري في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي.

درس القضاعي الحديث والفقه على مذهب الشافعي وبرع فيه، وبرز في التاريخ والأدب، حتى صار قاضي قضاة مصر[2]، وتقلب القضاعي في عدة وظائف ومهام رسمية، وكانت كفاءته العلمية والمهنية سببًا في وثوق المستنصر الفاطمي فيه والعمل بمشورته ورأيه، فانتدبه في مهام رسمية دقيقة، حيث كان سفير الدولة الفاطمية للإمبراطورية البيزنطية أيام المحنة الكبرى والقحط الشديد الذي أصاب مصر منذ سنة 446هـ، وكان الهدف من السفارة طلب المؤن والغلال لنجدة أهل مصر[3].

أرسل المستنصر بالله في سنة 446 هـ إلى إمبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع، يطلب منه أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا في آسا الصغرى؛ ومن ثم رأت أن تقوي صداقتها بالتحالف مع مصر التي كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن ترسل المؤن من القسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير وافرة من الغلال، ولكن قسطنطين السابع توفي قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفه على عرش القسطنطينية الإمبراطورة تيودورا، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطاً أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة؛ فانقطعت المفاوضات بين الفريقين، وسير المستنصر جيوشه إلى الحدود الشمالية، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادئ ذي بدء. ولكن الأسطول البيزنطي غزا مياه الشام، وهزم المصريين في

---

(1) عطية مصطفى مشرفة: مرجع سابق، ص244،243،234.

(2) عنان: مؤرخو مصر، ص55.

(3) المقريزى: المواعظ والاعتبار، 335/1.

عدة مواقع؛ فكف المستنصر عن متابعة الحرب، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة، وأرسل إلى بلاط القسطنطينية سفيراً مختاراً يسعى إلى عقد الصلح وتنظيم العلائق بين الفريقين[1].

كانت هذه السفارة إلى الدولة البيزنطية تحت قيادة أبى عبد الله القضاعي. فقصد القضاعي إلى بيزنطية عن طريق الشام؛ في سنة (446 هـ /1055م) ويقع هذا التاريخ في عصر الإمبراطورة تيودورا التي جلست على العرش سنة 1545م وتوفيت في أغسطس سنة 1057م؛ وعلى هذا فقد كانت سفارة المستنصر إلى الإمبراطورة تيودورا على حد قول المؤرخ ابن ميسر[2].

بيد أن هنالك رواية أخرى نستشف منها على أن الجالس على عرش القسطنطينية وقت مقدم القضاعي إليها لم يكن الإمبراطورة تيودورا، وأن الذي استقبل السفير المصري هو خليفة تيودورا الإمبراطور ميخائيل السادس الذي تولى عرش قسطنطينية في أغسطس سنة 1057م؛ فقد نقل المقريزي في ترجمة القضاعي ما يأتي: (وقال أبو بكر محمد بن سامع الصنوبري، سمعت القاضي أبا عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي يقول: " لما دخلت على ملك الروم اليون، رسولاً من قبل المستنصر بالله، وأحضرت المائدة، فلما رفعت جعلت ألتقط الفتات ؛ فأمر الفراش أن يحضر أخرى، ففعل؛ فقال لي الملك أصبت منه وإنك لم تشبع، فقلت أنا والله مستكف؛ فقال لي لم أكلت الفتات؟ فقلت: بلغني مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: من التقط ما سقط من المائدة برئ من الحمق والفقر؛ فأمر الخازن في الحال بإحضار ألف دينار وإعطائها؛ فقلت صدق رسول الله ﷺ، فاستغنيت وبريت من الحمق[3]".

على أية حال ورغم هذا الخلاف فيمكننا أن نوفق بين الروايتين فنفترض أن القضاعي وصل إلى القسطنطينية في أواخر عهد الإمبراطورة تيودورا؛ واستمر في أداء مهمته بعد وفاتها لدى الإمبراطور ميخائيل السادس؛ ومكث حيناً بالقسطنطينية؛ ومما يؤيد طول مكث

---

[1] المقريزى: المواعظ، 335/1.

[2] ابن ميسر: أخبار مصر، حوادث سنة 477هـ.

[3] أنظر: المواعظ والاعتبار، 335/1.

القضاعي بعاصمة القياصرة أنه عني هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها[1].

الجدير بالذكر أن القضاعي أخفق في مهمته. ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطراً على الدولة الشرقية من مصر، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك ؛ وبعث القضاعي بذلك إلى المستنصر، فرد المستنصر بالقبض على أحبار قيامة ومصادرة نفائسها، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطية مرة أخرى؛ وعاد القضاعي إلى مصر على أثر هذا الفشل سنة 450 هـ (1058م)[2].

ويبدو أن فشل القاضى القضاعى فى مهمته السياسية كان سبباً فى عزله عن القضاء إذ نسمع فى نفس العام 450هـ الذى عاد فيه من بيزنطة إلى مصر عن قاض شافعى آخر هو على بن الحسين الخلعى (ت 492هـ)، وذلك فى محاولة لكسب تأييد السنة عامة والشافعية خاصة. إلا أن الرجل لم يطق المنصب فى ظل الحكم الشيعى أكثر من يوم واحد واعتزل[3].

وفى العام 565هـ ولى صلاح الدين القاضى المفضل أبو القاسم هبة الله بن كامل الشيعى قضاء القضاة فى مصر مخافة من انتفاض الشيعة ضده، وولى الفقيه عيسى الهكارى السنى قاضياً على القاهرة[4]، وفى العام التالى 566هـ وبدعم من فقهاء السنة عزل صلاح الدين فى وزارته للعاضد قضاة الشيعة وعين القاضى صدر الدين بن درباس الهدبانى الشافعى قاضي القضاة وجعل إليه الحكم فى جميع مدن مصر بعدما أحضره من المحلة وخلع عليه. عندئذ قام ابن درباس بعزل كل قضاة مصر واستناب عنه قضاة سنيين على المذهب الشافعى، وكان لذلك اثره فى ازدهار مذاهب السنة بمصر لا سيما الشافعى والمالكى، وأقبل الناس عليهما، واختفى مذهب الشيعة من الإمامية والإسماعيلية، وبطل مجلس الدعوة الإسماعيلية بالجامع الأزهر وغيره[5].

---

(1) السبكى: طبقات الشافعية، 3/63.

(2) عنان: مؤرخو مصر، ص58.

(3) السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ مصر الإسلامية، ص241.

(4) المقريزى: إتعاظ، 3/318.

(5) نفسه، 3/320،319.

وقد غلب فى عصر الدولة الفاطمية إضافة النظر فى المظالم والحسبة إلى أعمال القاضى, وكان للمظالم ديوان خاص يشرف عليه صاحب المظالم وسلطته أكبر من سلطة القاضى, كما كان صاحب المظالم يفصل أيضاً فى الشكاوى العامة لجمهور الناس، وكان رأى قاضى المظالم فى الظلامات التى ترفع إليه نهائيا، ويكون باسم الخليفة[1].

ويتضح دور فقهاء السنة فى نظر المظالم فى بداية الدولة الفاطمية بمصر من خلال ما ذكره ابن خلكان أن جوهر الصقلبى كان يجلس معه حال نظره للمظالم القاضى السنى والوزير السنى ابن الفرات وجماعة من أكابر الفقهاء السنة[2].

أما الحسبة فكانت تستهدف الإشراف المباشر على الأسواق وما تضمه من محال وصناع ومواد وموازين ومكاييل وأسعار, والحسبة على الخبازين، والقصابين، والطباخين، وصناع الزلابية، والهرائسيين، والحلوانيين، والصيادلة، والعطارين، والبزازين، والمنادين والرواسيين، وقلائى السمك، والسمانين، والدلالين، والخياطين، والنساجين، والصباغين، والقطانين، والحريريين، والكتانيين، والأساكفة، والصيارفة، والصاغة، والنحاسين، والحدادين، والبياطرة، والنخاسين، والأطباء، والكحالين، والمجبرين، والجرائحيين، والفصادين والحجامين، ومؤدبى الصبيان، وأهل الذمة، والحسبة على الحمامات وقوامها[3]، وكانت أعمال الحسبة تسند أحيانا إلى صاحب الشرطة بمصر والقاهرة[4]، وقد تميزت الحسبة عن القضاء بإمكان المحتسب توقيع العقوبة فوراً على المخالفين, وهو لايتيسر فى القضاء.

الجدير بالذكر أن جوهراً عقب دخوله مصر قام بعزل المحتسب السنى أبو جعفر الخراسانى وعين بدلا منه محتسباً شيعياً هو سليمان بن عزة، وكان المحتسب الشيعى يتشدد فى طلب الحسبة وفى تنفيذ قوانينها خاصة على صيارفة الفسطاط، وغالبهم كانوا من أهل السنة، ونفرا من أهل الذمة، وقد أدى تشدد هذا المحتسب فى الوقت الذى تضرر فيه كثير من

---

(1) عبدالمنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، 111/1.

(2) أنظر: وفيات الأعيان، 212/1.

(3) الشيزرى: نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، نشر السيد الباز العرينى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1365هـ/ 1946م، ص4،5.

(4) القلقشندى: صبح الأعشى،461/10.

الصيارفة بسبب تغيير العملة حتى افتقر خلق كثير. أدى ذلك إلى تكاتف الفقهاء مع الصيارفة والخروج للشوارع يهتفون ضد جوهر وينتقدون معتقده، ويهللون بصوت مرتفع: " معاوية خال على بن أبى طالب[1]".

ولعل دور فقهاء السنة يتضح جلياً عندما نراهم يحتجون لدى الخلفاء والقضاة والمحتسبين من المنكرات التى يرتكبها أهل الذمة فى أعيادهم. فتضطر الدولة للتدخل فعليا لمنع ذلك خوفا من ثورة المصريين السنة. ومن ذلك ما حدث سنة 367هـ من منع الدولة قبط مصر أن يظهروا المجون والمنكرات فى عيد الغطاس، وتهديدهم بالنفى خارج البلاد إن وقعت منهم المنكرات[2]، وفى عام 381هـ عندما ارتكب القبط المنكرات بالفسطاط فى عيد الصليب أمر العزيز بالله بمنعهم من الخروج إلى الفسطاط، وبضبط الطرق لمنع المنكرات[3].

---

[1] المقريزى: المقفى الكبير، 105/3 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين، ص67.

[2] المقريزى: المواعظ والاعتبار، 26/2.

[3] محمود خلف: مرجع سابق، ص115.

المبحث الرابع: أهل السنة وحكام الأقاليم

الإقليم هو جزء من الأرض يحكمه الأمير، وهو الإمارة أو الولاية التابعة للدولة من جملة ولاياتها[1]، ولا تقل خطورة هذا المنصب عن الوزارة إذ إنها الرتبة الأولى فى السياسة العظمى[2]؛ ورغم الأمان الذى أصدره جوهر الصقلبى للمصريين عقب دخوله مصر، واشتماله على عدم تغيير أحوالهم الدينية والمذهبية والاقتصادية والسياسية فإن الرجل لم يف بوعده إلا فى القليل، وراح ينفذ مشروعه الخاص بصبغ النظام المصرى بالصبغة الشيعية اللّهم إلا ما كان من تهاون بعض الشىء فى الأماكن التى كانت تشهد غلياناً ضد الفاطميين ومذهبهم الشيعى كالإسكندرية وبعض أقاليم الدلتا كالغربية والبحيرة وغيرها، ومن ثم فإمارة الأقاليم المصرية فى العصر الفاطمى لم تكن من قبيل إمارة الاستيلاء[3]، ولا إمارة الاستكفاء[4]؛ وإنما كانت من نوع الإمارة الخاصة[5] حيث يعين مع أمير الإقليم قاض لإقامة الشرع، وإمامة الصلاة، ومستخدمين للأموال وخلافه[6].

---

(1) حسن الباشا: الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، القاهرة، 1965م، 3/1309.

(2) الحسن بن عبدالله: آثار الأول فى ترتيب الدول، بولاق، 1295هـ، ص163.

(3) هي التى تنعقد عن اضطرار وفيها يستولي الأمير بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه تدبيرها وسياستها فيكون الأمير باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير والخليفة بإذنه منفذاً لأحكام الدين ليخرج من الفساد إلى الصحة ومن الحضر إلى الإباحة. أنظر: الماوردى: الأحكام السلطانية، ص44.

(4) وهي التي تنعقد عن اختيار فتشمل عمل محدود ونظر معهود وفيها يفوض الخليفة إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله ونظرا في المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر ويكون له سبعة أمور: 1-النظر في تدبير الجيوش ؛ 2-النظر في الأحكام وتقليد القضاة والحكام ؛ 3-جباية الخراج وقبض الصدقات وتقليد العمال ؛ 4-حماية البيضة والذب عن الحريم؛ 5-إقامة الحدود ؛ 6-الإمامة في الجمع والجماعات ؛ 7-تسيير الحجيج. وإذا كان الإقليم متاخما للأعداء اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء. أنظر: الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، تحقيق أحمد مبارك البغدادى، دار الوفاء،المنصورة، ط1409،1هـ/ 1989م، ص40،41.

(5) هى التى يكون الأمير فيها مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية وحماية البيضة والذب عن الحريم, وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام والجباية الخراج والصدقات. أنظر: الماوردى: الأحكام السلطانية، ص43.

(6) رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية فى عصر الفاطميين، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص35.

كانت مصر مقسمة إدارياً إلى قرابة الثمانين كورة[1] منذ عصر الطولونيين والإخشيديين والقرن الأول من تاريخ الدولة الفاطمية، وهذه الكور كانت تعرف بالكور الصغرى، إذ كانت هناك الكور الكبرى، والتى كانت تضم تقسيما أصغر من عدد الكور الثمانين، لا سيما بعد الشدة المستنصرية التى منيت بها مصر[2]. ونعرف من أبى صالح الأرمنى أن تقسيماً جديداً عرفته مصر فى العام 469هـ/1076م، ومنه يتبين أن مصر قسمت إلى إحدى وعشرين كورة كبيرة أو قسماً إدارياً، منها أربع عشرة كورة بالوجه البحرى، وسبع كور بالوجه القبلى. إلا أن تقسيمه هذا لم يشمل كل الكور المصرية بلا شك. إذ غفل عن بعضها، وأخرج بعضها كما ذكر هو فى كتابه[3].

وقد اشتملت الكور التى ذكرها أبو صالح الأرمنى فى الوجه البحرى على ألف وخمسمائة وثمانية وتسعين ناحية وكفراً، وفى الوجه القبلى على خمسمائة وثمانية وثمانين ناحية وكفراً[4].

كان على رأس الجهاز الإدارى فى الأقاليم الوالى أو حاكم الإقليم، وهو من يُرجع إليه فى كل صغيرة وكبيرة، وهذا المنصب كان يؤهل صاحبه للوصول إلى الوزارة أعلى منصب فى الدولة الفاطمية بعد الخلافة، وممن وصل إلى هذا المنصب من أهل السنة، ومنه إلى منصب الوزارة رضوان بن ولشخى الذى تولى إقليم قوص وإخميم[5] ثم إقليم الغربية سنة 530هـ/1135م، وطالب بالوزارة فى العام التالى فتولاها[6]، وابن السلار الذى كان على إقليم الإسكندرية والبحيرة فى عهد الحافظ الفاطمى[7]، ونجح فى حماية حدود الإقليم

---

(1) هى كل صقع يشتمل على عدة قرى، شريطة أن يكون للقرى قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها. أنظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان، 37،36/1 ؛ صفاء عبدالحافظ: الإدارة المحلية، دار النهضة العربية، القاهرة، 1991م، ص25-27.

(2) رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية، ص77،76.

(3) أنظر: تاريخ أبى صالح الأرمنى، أكسفورد 1894 م، ص10.

(4) رحاب السيد: حكام الأقاليم المصرية، ص82-84.

(5) النويرى: نهاية الأرب، 306/28.

(6) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 170،152/3.

(7) القلقشندى: صبح الأعشى، 494/3.

وتأمينه من هجمات الصليبيين، وتأمين الطرق التجارية بما كفل ازدهار التجارة وتقدمها[1]. وكان لنجاحات ابن السلار فى إدارة هذا الإقليم، وإقليم الغربية من قبله[2] أثر كبير فى وصوله لمنصب الوزارة فى عهد الخليفة الظافر الفاطمى[3].

ومن حكام الأقاليم السُنة الذين قاموا بدور سياسى غاية فى الخطورة الأمير تبر الإخشيدى حاكم إقليم البشمور الذى قام بثورة عارمة فى شعبان من العام 358هـ/969م للإطاحة بحكم الدولة الفاطمية الشيعية، وإعادة الحكم للدولة الإخشيدية السنية، حيث دعا الإخشيدى للخليفة العباسى المطيع لله، وكتب اسمه على البنود، وكادت الثورة أن تطيح بالدولة الفاطمية، وهى لا تزال فى مهدها، وقد حاول جوهر الصقلبى أن يستعطف قائد الثورة إلا أنه فشل[4]، وقد اتبع هذا الإخشيدى جمع كبير من البشامرة مما أقلق المعز الفاطمى الذى أرسل عساكره إليه. فتفرق عن الإخشيدى اتباعه، وانتهى أمره بالقتل والصلب[5].

وفيما يخص الدور العلمى لحكام الأقاليم السُنة فسنفصل عنه القول بالفصل الرابع من هذه الدراسة، وتحديداً دور رضوان بن ولشخى، وابن السلار فى تأسيس المدارس السنية لمواجهة المذهب الشيعى.

وتجدر الإشارة إلى أن حكام الأقاليم من غير أهل السنة كانوا يعقدون المجالس العلمية التى يغشاها علماء السنة وغيرهم، ومن هؤلاء الحكام همام بن سوار اللخمى الذى ولى الإسكندرية فى وزارة أخيه ضرغام، وكان الفقيه الشافعى عمارة اليمنى يغشى مجالسه العلمية بل عبر عن حرصه عليها وعلى صاحبها الأمي همام بقوله: " لما داخلنى الخوف من ضرغام انقطعت إلى أخيه همام[6]".

وممن حرص على ولوج مجالس الأمير همام العلمية من أهل السنة الحافظ السلفى، والذى سأله همام سؤالاً مذهبياً يخص مذهب الفاطميين ذكره السلفى بقوله: " قال لى يوماً

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان، 419/3.
(2) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 199/3.
(3) المقريزى: المواعظ، 48/3.
(4) المقريزى: إتعاظ الحنفا،122/1 ؛ وانظر: محمود خلف: ثورات المصريين، ص59،60.
(5) محمود خلف: مرجع سابق، ص60.
(6) أنظر: النكت العصرية، ص77.

الأمير همام بن سوار اللخمى...: ما الخلفاء عندي سوى العلماء ؟!! وذلك بمحضر من جماعة من الأمراء فتداركت الأمر وقلت ما أبعد الأمير وفقه الله فقد روى عن النبي أنه قال اللّٰهم ارحم خلفائي قالوا يا رسول الله ومن خلفاؤك قال قوم يأتون من بعدي يروون أحاديثي وسنتي ويعلمونها الناس لكن النبي لما توفي ورث العلم والسيف فالعلم للعلماء يقولون ما أمر به الشارع والسيف للأمراء وجيوش الإسلام يأتمرون ذلك لكن بين من يقول إفعل وبين من يفعل بون بعيد وفرق ظاهر ونحن الآن وأنتم وإن اختلفنا في الزي فوارثان لإرث النبوة وكجسم واحد. ثم عقب السلفى على رده على الأمير بقوله: "فاستحسنوا هذا وأثنوا بخير وأرضيتهم بهذا الفصل خوفا من التشعي[1]".

وكان للوالى أو حاكم الإقليم نائباً عرف بنائب الوالى أو نائب الإقليم، وذكرت المصادر إشارات عن نائب تنيس، ونائب ثغر الإسكندرية، ونائب والى قوص[2]، ولم نقف على نص فى المصادر التى بين أيدينا يفيدنا بمن تولى هذا المنصب من أهل السنة.

ويرتبط بحكام الأقاليم ما عرف بالوظائف الدينية وكان فى مقدمتها القضاء، وكان قاضى الإقليم يعرف بنائب القاضى - قاضى قضاة الدولة الفاطمية بالقاهرة -، أو قاضى الإقليم أو متولى الحكم أو خليفة الحكم، ويقتصر عمله على إقليمه فحسب[3]. وكان أمر توليته وعزله بيد قاضى القضاة فى العاصمة[4]، وذلك فى عصر قوة الخلفاء، أما فى عصر الوزراء العظام فكان أمر تولية القاضى وعزله بيد الوزراء[5].

تنوعت مهام واختصاصات قاضى الإقليم فشملت النظر فى أحكام الإقليم، وإقامة الصلاة، والخطبة، والإشراف على الأحباس، وعلى الجوالى أى ضريبة الجزية على أهل الذمة،

---

(1) أنظر: معجم السفر، ص427.

(2) ابن ميسر: أخبار مصر، ص155 ؛ وانظر: القلقشندى: صبح الأعشى، 397/3 ؛ ابن إياس: بدائع الزهور، 195/1.

(3) سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، 291/1 ؛ وانظر: حسن الباشا: الفنون الإسلامية، 500/1.

(4) ابن الطوير: نزهة المقلتين، تحقيق أيمن فؤاد، القاهرة، 1992م، ص68.

(5) السيد عبدالعزيز: تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى، الإسكندرية، ط2، 1969م، ص194.

وعلى دور السكة، وعلى المكوس، ورعاية المستخدمين بالإقليم ومراقبتهم ومحاسبتهم، وإبقاء المستحق منهم وصرف المقصر[1].

وممن تولى هذا المنصب من أهل السنة قاضى الإسكندرية أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد بن حمدون الكنانى (ت 529هـ) قال عنه الحافظ السلفى: " قل ما يرى مثله فى أبناء جنسه رياسة وسياسة وفضلاً ونبلاً وكان سنياً مالكى المذهب عريق الرياسة[2]"، ولا شك أن جهوده وأعماله الإصلاحية كانت من وراء محبة الناس له حتى بعد وفاته، ومن ثم نسمع عن أعداد لا حصر لها تشيعه، وهو ما عبر عنه السلفى بقوله: "توفى بقرب ثغر رشيد فى موكب سلطانى وهو راجع من مصر فحمل إلى الإسكندرية وصلي عليه في مقبرة الديماس وحضره خلق لا يحصون كثرة[3]".

وأما ما وقع بين القاضى ابن حديد وبين الطرطوشى وكتابة الأول بشأن الثانى للوزير الأفضل فسنفصل القول فيه بالفصل الرابع من هذه الدراسة، ولا شك أنه راجع إلى المصلحة ومراعاة الظروف، لا سيما وأن الرجل كما أسلفنا كان صاحب صلاح وسياسة ونبل وفضل على حد قول فقيه بارز هو الحافظ السلفى. وصاحب مروءة عظيمة على حد قول المقريزى[4].

ويعتبر القاضى مكين الدولة ابن حديد (ت 529هـ) أحد أبرز قضاة الإسكندرية السنة فى العصر الفاطمى لا سيما أنه سليل أسرة من أكبر الأسرات السكندرية مكانة وعلماً وجاهاً وسلطاناً وثروة، وقد ولى منصب القضاء غير واحد من أفرادها، ومن ثم كان هذا القاضى من خيرة القضاة الذين اهتموا بالحركة العلمية فقصده الشعراء ولهم فيه أمداح كثيرة حيث مدحه ظافر الحداد، وأمية بن أبي الصلت، وغيرهما[5].

---

(1) المسبحى: أخبار مصر، تحقيق أيمن فؤاد، دار الوثائق القومية، القاهرة، ص216 ؛ وانظر: القلقشندى: 458/10،360،364،366 ؛ الشيال: أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ص74.

(2) أنظر: معجم السفر، تحقيق عبدالله عمر البارودى، دار الفكر، بيروت،1414هـ/ 1993م، ص54.

(3) أنظر: معجم السفر، ص54.

(4) أنظر: المواعظ والاعتبار، 319/3.

(5) أنظر: المواعظ والاعتبار، 319/3 ؛ حسين نصار: ظافر الحداد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1975م، ص38.

ولا شك أن الثراء الذى كان فيه ابن حديد لم يكن من منصبه فحسب. بل كان أيضاً من موروث أسرته الموغلة فى الجاه والمكانة والسلطان، ومن ثم يحدثنا المقريزى عن صورة من صور هذا الثراء وهذا الجاه فيقول: " وكان له بستان يتفرج فيه به جرن كبير من رخام، وهو قطعة واحدة وينحدر فيه الماء فيبقى كالبركة من كبره، وكان يجد في نفسه برؤيته زيادة على أهل التنعم، والمباهاة في عصره[1]".

[1] أنظر: المواعظ، 319/3.

المبحث الخامس: النظام الإدارى ودور فقهاء السنة:

إعتمد النظام الإدارى للدولة الفاطمية على عدد كبير من الدواوين خصص كل منها لأحد قطاعات الدولة, ووزعت هذه الدواوين على بعض القصور الفاطمية, وكانت بعضها تشغل عمائر خاصة بها حسب أهميتها وكثرة عدد موظفيها, وكان يشرف على كل ديوان منها أحد كبار الموظفين من أرباب الأقلام ويعاونه عدد من الموظفين يتراوح قدره حسب أهمية الديوان وكثرة أعماله أو قلتها[1].

تميز عهد الدولة الفاطمية بكثرة عدد الموظفين من أهل الذمة, وذلك تقديراً من الفاطميين لخبراتهم وكفاءتهم وبخاصة فى شئون المال والإدارة وجباية الضرائب, وبلغ من مهارتهم أن بعضهم بلغ به الترقى حتى وصل إلى الوزارة[2]، وكل ذلك كان مرده إلى خوف الفاطميين من أهل السنة المخالفين لهم فى المذهب.

ويتضح دور الفقهاء السنة من خلال توسيد العزيز بالله أمر الدواوين إلى الفقيه والوزير جعفر بن الفرات فى العام 383هـ حيث أمر الكتاب كلهم أن يمتثلوا بأمره. فركبوا جميعا إليه فأمر ونهى وتكلم فى الدواوين[3]. إلا أن مدته لم تطل إذ انقلب العزيز عليه وأزاحه من منصبه بعد أشهر[4]، وذلك تمشيا مع سياسة الدولة فى التمكين للشيعة متى ما سمح لها ذلك، ومن ثم جىء بعيسى بن نسطورس الذى تولى سائر الدواوين[5]، وذلك لكونه نصرانيا لم ولن يكون معارضا للنظام الشيعى كأهل السنة من المسلمين.

ومن أهل السنة الذين عملوا بالدواوين الفقيه الشافعى أبو عبدالله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي (ت 454هـ) الذى عمل كاتبًا في دار المحفوظات في عهد الوزير علي بن

---

(1) لمزيد من التفاصيل عن الدواوين أنظر: عبدالمنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ص94-111.

(2) محمود خلف: ثورات المصريين، ص73.

(3) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 277/1.

(4) نفسه، 279/1.

(5) المقريزى: إتعاظ الحنفا، 283/1.

أحمد الجرجرائي(ت 1045). وكان يعمل في تلك الدار، في الوقت نفسه المؤيد الشيرازي (ت 1078)[1]. ولا شك أن عمله بهذه الدار أكسبه خبرة كبيرة فى العمل الإدارى، وكان سببا فى ولايته القضاء، ثم فى سفارته إلى بيزنطة فى عهد المستنصر، فضلاً عن إفادته كثيراً فى كتاباته التاريخية والفقهية إذ كانت الكثير من الوثائق والمصادر تحت يديه.

وقد تولى القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي بن الحسن البيساني رئاسة ديوان الإنشاء إذ ولاه هذه الرئاسة صلاح الدين الأيوبي حينما كان وزيراً في مصر وكان يعتبر بمنزلة السلطان ويُلقب بلقبه، بينما كان القاضي الفاضل رئيساً لديوان الإنشاء ويعتبر بمثابة وزيره، ظل القاضي الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء رئيساً له، مع أنه حافظ على لقب نائب رئيس ديوان الإنشاء احتراماً لأستاذه ومعلمه ورئيسه الشيخ الموفق أبي الحجّاج يوسف بن الخلال، ولم يُشعر ابن الخلال يوماً أنه حل محله، وقد عامله الخلال حتى في أواخر سنين حياته معاملة الابن البار للوالد. وحالما تولى القاضي الفاضل رئاسة ديوان الإنشاء، راح يعمل مع صلاح الدين على الإعداد المتدرج للقضاء على الدولة الفاطمية، وكانت أولى الخطوات في هذا الاتجاه إعداد جيش أيوبي ينفّذ به خطته[2].

وساعده عمله في ديوان الجيش ثم في ديوان الإنشاء، في معرفة معلومات كبيرة وزاخرة، استخدمها في ترتيب الأمور مع صلاح الدين بشأن إعداد جيش صلاح الدين، وتنظيمه وإدارته، وظل طوال مدة عمله مع صلاح الدين يشرف على عساكره، ويساهم في إعداد الخُطط الحربية، ويُشرف على تمويل الجيش والأسطول وتزويدهما وتجهيزهما للجهاد[3].

وكان من سياسة القاضي الفاضل في القضاء على نظام الحكم الفاطمي التخلص من أصحاب الدواوين والكتّاب الموالين للفاطميين، ولذا تخلص من عدد كبير من الكتّاب الشيعة الإسماعيلية والمسيحيين واليهود وغيرهم خوفاً من أن يتآمروا مع الفلول الفاطمية، أو أن يتصلوا بالفرنج باسم الدواوين التي يعملون فيها، ولقد أشار إلى خطر هؤلاء الكتاب في أكثر من رسالة رسمية إلى الخليفة العباسي وإلى نور الدين محمود.

---

[1] عنان: مؤرخو مصر، ص55،56.

[2] هادية شكيل: القاضي الفاضل، ص126.

[3] نفسه، ص129.

وكان من أعمال القاضي الفاضل في القضاء على الحكم الفاطمي فترة وزارة صلاح الدين فصل ديوان الأحباس الفاطمي الذي كان يشرف على إدارة المؤسسات الدينية وتمويلها وتزويدها عن ديوان الأموال، وجعله ديواناً مستقلاً تحت إدارة الوزير مباشرة. وهذا ما أتاح للقاضي الفاضل تكليفه من قبل وزيره صلاح الدين لاختيار المدرسين فيها وقراء القرآن والحديث والوعاظ والأئمة، وبعد ذلك وفي عام (565هـ/1169م) أبطل الأذان «بحي على خير العمل، محمد وعلى خير البشر».

المبحث السادس: دور الفقهاء السنة وقت الفتن والأزمات والجهاد:

تعرضت مصر للكثير من الفتن والأزمات السياسية فى عصر الوزراء لا سيما فى عهد شاور، وكان يتبع هذه الأزمات تأثيرات على الشعب المصرى إذ كانت أموالهم تذهب فى الحرق والنهب فلا يجدون ما يقتاتون به، ومن ثم كان بعض الفقهاء يتوجه بالدعاء للخروج من الفتنة والناس تنتظر الفرج بعد دعائه، ومن هؤلاء الفقيه الشافعى عمارة اليمنى الذى قال:

يا رب إنى أرى مصراً قد انتبهت لها عيون الليالى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقدتها[1].

كما كان للفقهاء السنة دوراً رائداً فى الجهاد مع أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى لا سيما حال محاصرة شاور والصليبيين للإسكندرية فى العام 562هـ، حيث خرجت جماعة من الفقهاء تحت قيادة الفقيه شمس الإسلام مخلوف بن على المعروف بابن جارة المالكى لقتال شاور والصليبيين، وقد قاتلوا شاور قتالا شديدا على حد وصف المصادر، ونجحوا فى شحذ همم أهالى الإسكندرية فى الدفاع عن المدينة وصد العدوان حتى طلب منهم شاور تسليم صلاح الدين وفى مقابل ذلك يضع عنهم المكوس ويعطيهم الأخماس فقالوا: "معاذ الله أن نسلم المسلمين إلى الفرنجة والإسماعيلية"، ولما علم شاور بقرب أسد الدين شيركوه الذى كان بالصعيد خافه وراسل فى طلب الصلح[2].

عقب إتمام الصلح دخل شاور الإسكندرية ومعه الملك الصليبى عمورى بعد خروج صلاح الدين منها، وكان شاور حانقا على الفقهاء ومن ثم عاتبهم على قتالهم ومخالفتهم له فسكتوا إلا الفقيه المالكى ابن جارة تحدث قائلا: " نحن نقاتل كل من جاء تحت الصليب كائنا من كان. فقال الملك الصليبى عمورى لشاور وكان حاضرا: " وحق دينى لقد صدقك هذا الشيخ ". فسكت شاور وأكرمهم بعد ذلك اليوم[3].

---

[1] أنظر: النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية، مطبعة مَرْسَوْ بمدينة شالَوْن – باريس، ص190،189.

[2] ابن واصل: مفرج الكروب، 152/1 ؛ وانظر: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، 122/11 ؛ النويرى: نهاية الأرب، 28/ 337؛ المقريزى: أتعاظ، 285/3.

[3] المقريزى: مصدر سابق، 285،286/3.

ولقد كان للفقهاء دور مهم بخصوص إجازتهم استخدام مال الوقف فى فداء أسرى المسلمين، وهو ما أمضاه صلاح الدين عندما وقف بلدة بلبيس ومتحصلاتها على فك أسرى المسلمين من سكان هذه المدينة، والتى كان الصليبيون قد احتلوها فى محرم من العام 564هوأسروا عدداً كبيراً من أهلها[1].

[1] عمارة اليمنى: النكت العصرية، ص80 ؛ وانظر: ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، 350/6 ؛ سمير حامد: الأوقاف فى عصر الدولة الفاطمية، أطروحة دكتوراة، كلية الآداب – جامعة كفر الشيخ، 1432هـ/2011م، ص114.

المبحث السابع: موقف أهل السنة من الحركة الصليبية فى بلاد الشام

لا يعنى حديثنا عن موقف أهل السنة من الحركة الصليبية فى بلاد الشام أننا خالفنا ما شرطناه فى كتابنا من قصر تأثيرات أهل السنة على المجتمع المصرى، وذلك لأن التواجد الصليبى فى بلاد الشام كان يهدد المجتمع المصرى برمته، والذى كان مرتبطاً بممتلكاته فى بلاد الشام فى العصر الفاطمى وقبله، بل إن الصليبيين كان يدركون تماما دور مصر فى الصراع الإسلامى الصليبى، كذلك كان لمحاولات مصر الدفاع عن ممتلكاتها فى بلاد الشام أن فكر الصليبيون فى غزو مصر واجتياح أراضيها فى عهد الأفضل شاهنشاه الوزير السنى، وهو ما سنجليه بعد قليل.

كان الصراع على أشده بين الفاطميين والسلاجقة، ولم يكن الأفضل بعيداً عن هذا الصراع، فكانت له إسهامات في محاولة استرداد بعض المواقع التي كان السلاجقة قد استولوا عليها في عهد أبيه، مثل مدينتي صور سنة 490هـ/ 1097م، وصيدا سنة 491هـ/ 1098م، وكذلك انتزاع بيت المقدس في رمضان 491هـ/1098م من حكامها الأرتقيين.

وعندما شرعت جحافل الصليبيين تكتسح شمالي سورية سنة 491هـ/1098م – فحاصرت أنطاكية واستولت عليها، وتوالى من بعدها سقوط مدن الشام الساحلية، الواحدة تلو الأخرى- لم يظهر الأفضل من بُعْدِ النظر في مواجهة الفرنجة ما أظهره في الأمور الأخرى. ولعل مرد ذلك جهله بطبيعة الحركة الصليبية وأهدافها، ولم يدرك الأفضل ما للقدس من أهمية في خطط الصليبيين وأنها هدف رئيس لهم إلا بعد فوات الأوان. فقد اعتقد أن جيوش الصليبيين جاءت إلى بلاد الشام لمساعدة الإمبراطورية البيزنطية لكسر شوكة السلاجقة أعداء الفاطميين، ومن ثم انتهز الفرصة وعقد تحالفاً مع الصليبيين بحيث تكون أنطاكية للصليبيين وباقي مدن الشام من نصيبه باعتباره رجل الفاطميين القوى[1]، وقد أرسل الأفضل سفارة إلى الصليبيين بخصوص أمر التحالف الذى شجعه الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين حيث نصح الصليبيين أثناء وصولهم إلى القسطنطينية أن يحاولوا

[1]stevenson(W.B): The crusader in the east, Landon-1907,P,26.

محالفة الفاطميين في مصر والتقرب اليهم وذلك لعلمه بالعلاقة العدائية بين الفاطميين والسلاجقة، وبالفعل أرسل الصليبيون سفارة من نيقية إلى مصر بخصوص هذا الشأن[1]، ورغم ذلك فلم تأت المفاوضات بأية نتيجة تحقق للأفضل ما كان يسعى إليه[2]، ومن ثم عزم الأفضل على استغلال فرصة انشغال السلاجقة في حربهم مع الصليبيين وخرج بنفسه في شهر شعبان من عام 491هـ/1098م على رأس جيشه إلى بيت المقدس وضرب حوله الحصار لمدة أربعين يوما واستطاع استرداده من سكمان الأرتقي وأخيه إيلغازى[3].

تحركت القوات الصليبية بقيادة ريموند في 14 محرم 492هـ/1098م إلى معرة النعمان بعد سقوط أنطاكية ثم إلى كفرطاب، واستأنفت زحفها نحو بيت المقدس فمروا بمصياف ثم اتجهوا إلى بعرين ومنها إلى سهل البقاع ثم إلى حض الأكراد ثم عرقة التى حاصروها أشهراً ومع ذلك استعصت عليهم لبأس أهلها، فتركوها وتوجهوا إلى بيت المقدس[4].

أدرك الأفضل الوزير السنى أن بيت المقدس هو الهدف الرئيس للصليبيين وأنهم لن يقفوا عند حد ما استولوا عليه من أراضى، ومن ثم أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين يسأله عن ما إذا كانت تلك الحركة تعمل لحسابه أم لا ؟ فأنكر الإمبراطور معرفته بها[5]، إزاء ذلك أرسل الأفضل سفارة إلى الصليبيين وصلتهم قرب طرابلس تحمل الهدايا النفيسة والأموال الكثيرة عرض فيها مشروعاً على الصليبيين يتضمن عدول الصليبيين عن مواصلة طريقهم إلى الأراضي الفاطمية ويحتفظ الصليبيون بالأراضي التي امتلكوها ويتركوا جنوب فلسطين وبيت المقدس للفاطميين، على أن يسمح الفاطميون للصليبيين بزياره الأماكن المقدسة ببيت المقدس وأداء طقوسهم الدينية بشرط أن لايزيد عددهم في كل زيارة

---

(1) سعيد عبدالفتاح عاشور: الحركة الصليبية، ص156.

(2) عبد الغني محمود عبدالعاطى: السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية في عهد الامبراطور الكسيوس كومنين، القاهرة،1983م، ص155،154.

(3) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ط1، 1403هـ/1983م، ص135؛ وانظر: ابن الأثير: الكامل، 105/10 ؛ ابن ميسر: أخبار مصر، 66،65 ؛ المقريزى: إتعاظ الحنفا، 22/3.

(4) ابن الأثير: الكامل، 278/10 ؛ وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 180،179/1.

(5) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص678.

عن مائتي أو ثلاثمائة حاج وأن لاتتعدى مدة إقامتهم عن شهر ولايدخلوها بالسلاح، وهو ما لقى الرفض من الصليبيين الذين عزموا على المضى قدماً بأسلحتهم تجاه بيت المقدس[1]، وذلك فى الوقت الذى انشغل فيه الأفضل بالأحداث الداخلية التي كانت تعصف بالخلافة الفاطمية والمتمثلة باقصاء نزار بن الخليفة المستنصر بالله عن الحكم وتوليه أخيه الأصغر المستعلي، وقيام نزار مدعوماً من أهل الإسكندرية بالثورة على الأفضل والخليفة الفاطمى الجديد.

دخل الصليبيون بيت المقدس والأفضل لا يزال يدبر أموره ويعالج المشكلات الداخلية التى واجهته بمصر، ومن ثم لم يستطع أن يحرك ساكناً[2]، ولعل ذلك كان تفسيراً لتعجب ابن تغردى من عدم إخراج الأفضل لجيشه كى يتصدى للصليبيين عندما قال: " وما أدري ما كان السبب في عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال[3].

قاوم والي بيت المقدس الفاطمي وسكانها الصليبيين أشد المقاومة، ولكنهم لم يفلحوا فى رد العدوان، وأمام وحشية الصليبيين احتمى الوالى وجيشه بمحراب داود حيث بذل لهم الصليبيون الأمان وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان[4].

جهز الأفضل حملة عسكرية بقيادته في رمضان 492هـ/1099م للتوجه الى بيت المقدس. كما جهز أسطولاً ضخماً محملاً بالآلات الحربية والمواد الغذائية وتوجه بنفسه الى عسقلان، وهناك أرسل إلى الصليبيين ينكر عليهم ما اقترفوه من أعمال وحشية ويتهددهم[5]، وذلك فى إطار مراوغة سياسية ريثما تصله إمدادات الأسطول.

طال انتظار الأفضل للمدد فى الوقت الذى احتشدت فيه جموع الصليبيين وهجموا على الجيش الفاطمى بقيادة الأفضل. بل نفذوا الى الجانب الذي كان يقاتل فيه الأفضل واستولوا

---

(1) عبد الغني محمود عبدالعاطى: مرجع سابق، ص157 ؛ وانظر: أيمن فؤاد: مرجع سابق، ص678.

(2) الدواداري: الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد، المعهد الألمانى للآثار، القاهرة، 1961م، 6/444، 447.

(3) أنظر: النجوم الزاهرة، 5/147.

(4) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، 10/283.

(5) ابن القلانسي، تاريخ دمشق، ص137؛ وانظر: ابن الأثير: مصدر سابق، 10/286.

على لوائه فتشتت الجيش الفاطمي وهرب الأفضل مع من بقي من جيشه إلى عسقلان ومنها إلى مصر[1].

ورغم هذه الهزيمة التى منى بها الأفضل فقد قام بإرسال ثلاث حملات كبيرة لمهاجمة الصليبيين الأولى في رجب 494هـ /1101م بقيادة سعد الدولة الطواشي أحد مماليك الأفضل، وذلك لاسترداد بيت المقدس مستغلة غياب ملك بيت المقدس بلدوين الذى بمجرد علمه بنبأ وصول تلك الحملة عاد مسرعاً بقواته واتجه إلى الرملة ؛مما دفع قائد الحملة الفاطمية سعد الدين الطواشي أن يتوجه إلى عسقلان آملاً في وصول الإمدادات له، وحال وصولها من مصر علم بها بلدوين الأول الذى وقعت بيده رسالة علم منها أن إمدادات فاطمية جديدة فى طريقها إلى سعد الطواشي وأنهم مستعدون للمسير إلى بيت المقدس[2].

تحرك سعد الدين بقواته ببطئ شديد، والتقى بالصليبيين بين الرملة ويافا، وكان النصر حليفه وقتل قائد القوات الصليبية بيرفولد إلا أن الجيش الفاطمي ارتكب خطأً أدى إلى أن تدور الدائرة عليه. إذ بعد النصر تحرك قلب الجيش الفاطمي عن موضعه بحثاً عن الغنائم فداهمتهم قوات بلدوين وقتل الطواشى وعدد كبير من المسلمين، وعاد بلدوين إلى بيت المقدس وهو محمل بالغنائم والاسلاب[3].

عقب هذه الهزيمة أمر الوزير السنى الأفضل بإعداد حملة عسكرية كبيرة من العرب والسودان بلغ تعدادها عشرين ألفاً تحت قيادة ولده شرف المعالي في شعبان 495هـ/1002م احتشدت في عسقلان ثم اتخذت طريقها إلى الرملة وبحذائها الأسطول في البحر[4].

هجم الجيش الفاطمى على الصليبيين فانهارت صفوفهم ولجأ بلدوين ومن بقي من جنده إلى حصن صغير بالرملة فحاصرهم الفاطميون وهاجموا أسوار مدينة الرملة وأشعلوا النيران فى الحصن، وواصلوا القتال إلا أن اختلاف أصحاب شرف المعالي فيما بينهم حول أي

---

(1) ابن القلانسي: مصدر سابق، ص137؛ وانظر: ابن الأثير: مصدر سابق، 323/10.

(2) ابن الأثير، الكامل، 325/10 ؛ وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 223/1.

(3) ابن الأثير، الكامل، 364/10 ؛ وانظر: محمد مرسى الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، الإسكندرية، 1972م، ص156،157 ؛ محمد مؤنس: معجم أعلام الحروب الصليبية، مكتبة الآداب، القاهرة، 2016م، ص75.

(4) ابن الأثير، الكامل، 364/10.

الطرق يتوجهون إليها لاتمام النصر على الصليبيين فى الوقت الذى وصلت للصليبين إمدادات ضخمة عن طريق البحر أوقع بالفاطميين الخسائر ففر الجيش الفاطمي إلى عسقلان وعاد شرف المعالي إلى مصر[1].

وما أن سمع الوزير الأفضل بهزيمة ابنه شرف المعالي إلا وأرسل حملتين إحداهما برية من أربعة آلاف فارس تحت قيادة تاج العجم والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس فنزل تاج العجم على عسقلان، ورفض معاونة ابن قادوس مما أدى إلى فشل التعاون بطريقة فعالة بين القوات البرية والبحرية رغم وصول الإمدادات إليهما[2]، ومن ثم أمر بالقبض على تاج العجم وأرسل رجلاً لقب بجمال الملك ولاه عسقلان وجعله قائداً للقوات الفاطمية البرية بالشام لكن الصليبين انتصروا عليه بعدما وصلت اليهم الإمدادات، ولذا طلب الأفضل من صاحب دمشق شمس الملوك دقاق المساعدة فلبى بالمعاونة لكنه لم يحضر بنفسه، ومن ثم يعلق ابن القلانسي على ذلك بقوله: " كتب الأفضل في استدعاء المعونة على الجهاد ونصره العباد والبلاد بإنفاذ العسكر الدمشقي فأجيب إلى ذلك وعاقت عن مسيره أسباب حدثت وصوادف صدفت[3]...".

لم يتوقف الوزير السنى الأفضل عن مواصلة جهاده ضد الصليبيين والعمل على استرداد بيت المقدس والمدن والثغور التي استولى عليها الصليبيون في بلاد الشام فنراه يعد حملة ضخمة في العام 498هـ/1104م أنفق عليها أموالاً كثيرة وجعل القيادة لابنة سناء الملك حسين واستعد الأسطول الفاطمي لمساندة الجيش من ناحية البحر، وطلب الأفضل المساعدة من أمير دمشق ظهير الدين أتابك طغتكين الذى استجاب لنداء الفاطميين وأرسل إليهم أحد رجاله ويدعى أصهبد صباوا فى ألف وثلاثمائة فارس[4].

---

(1) نفسه، 365/10.

(2) نفسه، 366/10 ؛ وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 235/1،236.

(3) أنظر: تاريخ دمشق، ص142.

(4) ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص148-149.

دارت معركة بين القوات الفاطمية الدمشقية المشتركة وبين الصليبيين عند الرملة في الرابع عشر من ذي الحجة 498هـ/1105م، وانتهت بانتصار الصليبيين، وفرار كل من القوات الفاطمية والدمشقية، وعودة قائد الحملة إلى مصر[1].

لم يعد بمقدور الفاطميين بعد ذلك سوى تهديد الصليبيين بين الحين والآخر ولكن في نطاق محدود وكان مبعث التهديدات مدينة عسقلان التي أعاد الفاطميون تقوية حصونها[2]، ومن جملة هذه التهديدات هجوم فى صفر 500هـ/1106م على معسكر للحجاج الصليبيين في يافا وأرسوف كما أغار الفاطميون عام 501هـ/1107م على الخليل، ووصلوا عام 503هـ/1110م إلى أسوار بيت المقدس لكنهم انسحبوا لقلة عددهم وضعف تسليحهم، إلا أن القوات الفاطمية المرابطة في عسقلان استمرت خلال العشر سنوات التالية تقوم بغارات مماثلة أزعجت حياة النزلاء والحجاج الصليبيين في السهل الساحلى[3].

حاصر الصليبيون طرابلس حتى ساءت أحوالها الاقتصادية فارتقت الأسعار وعدمت الأقوات وفشلت كل المحاولات لتخفيف الحصار على المدينة، وخرج قاضيها ابن عمار طالباً النجدة من الأمراء والسلطان السلجوقى والخليفة العباسى[4]، ولكن تأخر وصول المدد جعل أهالى طرابلس يضيقون ذرعا من الحصار فاستنجدوا بالوزير السنى الأفضل بن بدر الجمالي وعرضوا عليه تسليم المدينة فاستجاب للنداء وأرسل إليهم شرف الدولة بن أبي الطيب والياً عليها وذلك في عام 501هـ/1108م ومعه ما يحتاجونه من المؤن، ولكن الصليبيين عادوا فشددوا الحصار عليها فجهز الأفضل أسطولاً بحرياً لنجدتها لكنه وصل متأخراً بعد أن تملك الصليبيون المدينة[5].

حاول بلدوين في عام 502هـ/1108م الاستيلاء على صيدا فحاصرها براً وبحراً بمعاونة أسطول من مدن ايطالية مختلفة، ولكن الفاطميين نجحوا فى الوصول بأسطولهم من

---

(1) ابن الأثير: الكامل، 375/10 ؛ وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 240/1.

(2) ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص151 ؛ وانظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 240/1

(3) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 240/1 -242.

(4) ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص160

(5) ابن الأثير: مصدر سابق، 475/10.

مصر إلى صيدا وألحقوا الهزيمة بالسفن الإيطالية خارج ميناء صيدا مما دفع بلدوين إلى فك الحصار عن المدينة[1].

هاجم الصليبيون بيروت عام 503هـ/110م حيث زحف بلدوين الأول ملك بيت المقدس وبرتراند بن ريموند، وأحكما الحصار على المدينة من ناحية البر والبحر، ولما بلغ الأفضل نبأ تلك الحملة جهز تسع عشرة سفينة حربية اشتبكت مع الصليبين المحاصرين لبيروت واستولت على بعض القطع البحرية الصليبية فقويت نفوس أهل بيروت فكبدوا الصليبيين خسائر كثيرة لكن الامدادات وصلت إلى الصليبيين فاشتبك الطرفان، وانتهى الأمر بتملك الصليبيين لبيروت. حاول الفاطميون عبثاً أن يحركوا ساكنا فأرسلوا إلى بيروت قوة برية تعدادها ثلاثمائة فارس إلا أن قوة صليبية اعترضت تقدمها[2].

لم يتوقف الصليبون عن مشروعهم الصليبى بالسيطرة على المدن الشامية فقد عادوا لمحاصرة صيدا وذلك في العام 504هـ/1110م ولم يستطيع الأسطول الفاطمي المقيم فى صور إنقاذها لذا خرج قاضي المدينة وجماعة من شيوخها وطلبوا الأمان فأمنهم بلدوين على أموالهم وأنفسهم وعساكرهم[3].

قصد الصليبيون بعد ذلك عسقلان بقيادة بلدوين فخرج إليه والي الفاطمين شمس الخلافة الذي خلع طاعة الفاطميين وهادن بلدوين. مما اضطر الأفضل أن يجهز جيشاً وأرسله إلى عسقلان مع وال جديد بدلا من شمس الخلافة لكن الأخير رفض فتح أبواب المدينة وأظهر عصيانه للأفضل وأرسل يطلب المعونة من بلدوين كما أخرج العساكر الفاطمية من عسقلان خوفا منهم. عندئذ خشى الأفضل أن يسلم شمس الخلافة عسقلان للصليبيين فأرسل إليه من يطيب خاطرة وأقرة على عمله وأعاد إليه إقطاعاته في مصر والتي كان الأفضل قد صادرها، وعادت حملة الأفضل إلى القاهرة؛ إلا أن أهل عسقلان كرهوا شمس الخلافة لخيانته فوثبوا عليه وأردوه قتيلاً في أواخر 504هـ/1111م فاستعمل الأفضل بدلاً منه والياً جديدا وبقيت عسقلان ضمن أملاك الدولة الفاطمية[4].

---

(1) ابن القلانسى: مصدر سابق، ص162.

(2) نفسه، ص168

(3) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، 10/480،479.

(4) ابن الأثير: الكامل، 10/479-481.

كانت مدينة صور مثلها مثل عسقلان قد استعصت على بلدوين الأول لاعتمادها على الخلافة الفاطمية التي كانت تمدها بالإمدادات لكن بلدوين قرر أن يحاصر المدينة وذلك في جمادي الأولى 504هـ/1111م مستغلاً انشغال الدولة الفاطمية بما ألم بها من وباء حصد ما يقرب من ستين ألف نفس[1]، وقد قاوم أهل صور في رد الحصار الصليبي، ولكنهم كانوا بحاجة إلى المعونة فطلبوا من حاكم دمشق طغتكين المعونة فاستجاب لهم. كما وصلت أعداد كبيرة من المتطوعين من صور وجبيل ودمشق وكذلك شرع طغتكين في إنفاذ قوة أخرى، وعلى الرغم من طول الحصار الذي استمر أربعة أشهر ونصف فقد صمد أهالى صور ورحل الصليبيون عنها صور في شوال 505هـ/1112م[2]، لكنهم عادوا فى العام التالى 506هـ/1112م لحصارها فاستنجد أهل صور بطغتكين فأرسل للمدينة أميراً يدعى مسعود وأمده بعكسر وميرة، وعلى الرغم من ذلك فقد أبقى طغتكين صاحب دمشق المدينة تحت سيادة مصر فلم يغير الخطبة باسم الخلافة الفاطمية ولا السكة وكتب طغتكين إلى الأفضل بمصر يعلمه أن بلدوين قد جمع وحشد للنزول على صور وأن أهلها استنجدوا بي لحمايتهم فبادرت بإنهاض من أثق بشهامته لحمايتها ومتى ما وصل من مصر من يتولى أمرها ويزود عنها ويحيمها بادرت بتسليمها إليه وسوف أخرج ونوابي عنها ثم طلب طغتكين من الأفضل إنفاذ الأسطول المصرى بالغلة إليها والتقويه لها وقد أعاد الأفضل الرسول بالجواب الجميل والشكر إلى طغتكين. ثم أقلع الأسطول الفاطمي إلى صور عام 507هـ/1113م محملاً بالغلال والرجال فرخصت الأسعار واستقام الأمر بها، ونجت صور من حصار الصليبيين بل إن بلدوين قد تغيظ من تلك العلاقة الحميمة بين أتابك دمشق طغتكين ووزير مصر الأفضل لذا اضظر إلى مراسلة الأمير مسعود والي صور يلتمس منه المهادنة والموادعة فأجابه مسعود إلى ذلك فأمنت الطرق للمترددين والتجار والسفراء الواردين من جميع الأقطار[3].

لم تتوقف حملات الأفضل بن بدر الجمالى على الصليبيين فى بلاد الشام فقد خرجت قوة عسكرية من مصر عام 507هـ/1113م ووصلت إلى عسقلان ومنها هاجمت بيت المقدس

---

(1) الدواداري: الدر المضية، 6/ 576.

(2) ابن الأثير: مصدر سابق، 10/488،489.

(3) ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص188،189.

ثم عادت من حيث جاءت لاهتمام الصليبيين بتحصين المدينة ثم خرجت قوة أخرى من عسقلان عام 509هـ/115م لمهاجمة الصليبيين في يافا لكنها عادت مثل سابقتها دون أن تحقق أية نتائج ملموسة[1].

قرر بلدوين الأول الرد على غارات الفاطميين بالهجوم على مصر نفسها، ونجح فى اجتياح شبة جزيرة سيناء وعبر بجيشه من العريش إلى الفرما التى استولى عليها وقام بكثير من أعمال السلب والنهب وأحرق جامعها ثم توجه إلى مدينة تنيس لكنه لم يستطيع أن يتوغل كثيراً في الأراضي المصرية لصغر حجم قواته[2]، وقد عاجلت المنية بلدوين الأول في اليوم الثالث لوصوله تنيس، وقيل بالعريش. فعاد به أصحابه في المحرم 513هـ/1118م إلى بيت المقدس حيث دفن هناك فى السابع من أبريل بجوار جودفرى أوف بويون فى كنيسة الضريح المقدس[3].

لم يقف الوزير السنى الأفضل مكتوف الأيدي تجاه ذلك الاعتداء فقد أرسل جيوشه إلى عسقلان وأسطوله إلى صور، وتم الاتفاق بينه وبين صاحب دمشق طغتكين على القيام بعمل مشترك ضد الصليبيين، واجتمع الجيش الفاطمي والدمشقي في عسقلان وكانت القيادة لطغتكين[4]، وقد حاول ملك بيت المقدس بلدوين الثاني أن يفك من عرى هذا الاتفاق بين طغتكين والأفضل بتجديد هدنته مع أتابك دمشق والتي سبق أن عقدها بلدوين الأول لكن طغتكين رفض ذلك[5].

على أية حال رغم ما تقدم من جهود قام بها الأفضل لمقاومة الحركة الصليبية فلاشك أنه يتحمّل وحده وِزر سقوط مدن الشام الساحلية التي كانت للفاطميين في أيدي الفرنج، فقد

---

(1) هيفاء عاصم: الفاطميون والغزو الصليبى، مجلة كلية التربية الأساسية، جامعة بابل، عدد 14، كانون أول 2013م، ص147.

(2) ابن الأثير: الكامل، 10/ 543 ؛ وانظر: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 5/ 171.

(3) الداوداري: الدرة المضية، 6/ 48، 481 ؛ وانظر: محمد مؤنس عوض: معجم أعلام الحروب الصليبية، ص364.

(4) ابن الأثير: الكامل، 10/ 467.

(5) ابن القلانسي: تاريخ دمشق، ص190.

اتصف موقفه تجاه ما كان يحدث باللامبالاة المتناهية، وأدى هذا التهاون إلى استيلاء الفرنج على عكا وطرابلس وجبيل وعِرْقة وبانياس، وبيروت، وصيدا، وتِبْنين وأخيراً صور... بل بلغ الأمر إلى أن وصل بُلْدوين، ملك بيت المقدس، على رأس حملة على الأراضي المصرية حتى الفَرَما، واضطر الأفضل إلى مهادنته لعجزه عن مواجهة قواته[1].

ولابد مما ليس منه بد أن نشير إلى أمر مهم بخصوص موقف الأفضل من الحركة الصليبية يؤكد على حرصه كسنى على مواصلة الجهاد والكفاح ضد الصليبيين والعمل على تقوية جيشه وإعادة بنائه ليستطيع أن يقوم بمهامه. فبعد أن وصل الأفضل إلى عسقلان وزحف عليها وجد خذلانا من جيشه تسبب فى هزيمته الأمر الذى دفعه إلى حرق جميع ما كان معه من الآلات قبل عودته لمصر[2]، وبدأ عملية إصلاح شاملة للجيش الفاطمى تركزت فى إنشاء سبع حجر لإعداد محاربين جدد، واختار من أولاد الأجناد ثلاثة آلاف رجل وقسمهم فى هذه الحجر وجعل لكل مائة منهم نقيباً، وجعل على رأسهم أميراً يقال له الموفق، وأطلق لهم جميع ما يحتاجونه من خيل وسلاح[3]، ولعل هذه التجربة إن لم تنجح فى كسر الصليبيين فى عهد الأفضل فقد نجحت فى تخريج بعض الكفاءات من وسط الصبيان الحجرية كابن السلار الذى وصل إلى منصب الوزارة[4] ولعب دوراً مهماً فى مواجهة الصليبيين كما سيتضح بعد قليل.

بعد مقتل الوزير السنى الأفضل فى العام 515هـ يبرز لنا وزير سنى آخر هو رضوان بن ولخشى والذى تولى الوزارة للحافظ الفاطمى فى العام 531هـ/1137م، وسعى سعياً حثيثاً لمواجهة الحركة الصليبية فى بلاد الشام بتوفير العدة والعتاد اللازمين لذلك، ومن ثم رأيناه يستجد ديوان الجهاد، وعمل على تقوية الثغور، وتعمر عسقلان بالعدد والآلات، وهيأ الناس للخروج إلى الشام وجهاد الفرنجة[5]، إلا أن الخليفة الحافظ منعه من ذلك، وحرض

---

(1) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص229،230.

(2) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص3.

(3) نفسه، ص4.

(4) ابن الطوير: نزهة المقلتين، ص5 ؛ وانظر: أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية، ص684.

(5) ابن ميسر: أخبار مصر، ص129.

الجند للثورة على رضوان مما اضطره للفرار من مصر إلى صرخد حيث استقبلها صاحبها أمين الدولة كمشتكين الأتابكى أحسن استقبال[1]، وقد عاون صاحب صرخد ابن ولخشى فى العودة إلى مصر وأمده بقوة من الأتراك سيرهم معه إلا أنهم غدروا به فى الطريق، وانتهى أمره بالاعتقال فى القصر الفاطمى قرابة الثمان سنوات إلى أن تمكن من الهرب سنة 542هـ وحاول أن يسترد منصبه إلا أن الحافظ أمر مقدمى السودان بالهجوم عليه فقتلوه غدراً[2].

ومن وزراء السنة الذين حاولوا مواجة الصليبيين ابن السلار. فرغم ما كان بينه وبين الخليفة الفاطمى الظافر من ضغائن وتربص كل منهما بالآخر فقد جهز فى العام 546هـ/1150م السفن الحربية وشحنها بالرجال والعتاد والمؤن ووجهها إلى الشام للقيام بعمل حربي ضد الصليبيين فوصلت إلى يافا وقتلت أعداداً كبيرة منهم وأسرت عدداً من السفن وأحرقت ما عجزت عن أخذه ثم توجهت إلى ثغر عكا ومنها إلى صيدا ثم إلى بيروت وأخيراً وصلت إلى طرابلس فظفرت بمجموعة من الحجاج الصليبيين فقتلتهم، ولما علم نور الدين محمود بذلك هم بقصد الصليبيين من ناحية البر مستغلا هجوم الأسطول الفاطمي في البحر لكنه كان مشغولا بإصلاح أمور دمشق[3]، وقد قدرت جملة النفقات التي أنفقها ابن السلار على هذا الأسطول بثلاثمائة ألف دينار[4].

عمل ابن السلار على تقوية الجيش واهتم بتحصين عسقلان، وكلف أسامة بن منقذ بالذهاب إلى نور الدين محمود لينازل الفرنج عند طبرية ويشغلهم عن الفاطميين ليتفرغوا لتخريب غزة التى عمرها الفرنجة ليتفرغوا لحصار عسقلان، ودفع ابن السلار لأسامة ستة آلاف دينار ليدفع بهم إلى نور الدين محمود إن نزل طبرية وأوصاه إن حدث له مانع أن يجمع ما يستطع من الجند ويتوجه إلى عسقلان لقتال الفرنج[5].

---

(1) نفسه، ص131 ؛ وانظر: ابن القلانسى: تاريخ دمشق، ص270

(2) أسامة بن منقذ: الاعتبار، دار الهلال، القاهرة، ص48-51 ؛ وانظر: ابن ميسر: أخبار مصر، ص137،138 ؛ ابن القلانسى: مصدر سابق، ص296.

(3) ابن القلانسى: مصدر سابق، ص315 ؛ وانظر: أبو شامة: الروضتين، 202/2.

(4) ابن القلانسى: مصدر سابق، ص315 ؛ وانظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، 371/1.

(5) أنظر: الاعتبار، ص35،36.

توجه أسامة إلى الشام فالتقى نور الدين محمود، والذي جهزه بثمانمائة وستين فارساً، وسير معه الأمير عين الدولة الباروني في ثلاثين فارساً، وقاد أسامة بن منقذ تلك القوات والتقى مع الجيش الصليبي فى عسقلان وبيت جبريل، وظل يقاتل أربعة أشهر إلى أن استدعاه ابن السلار إلى مصر[1].

لم يهمل القدر الوزير السنى ابن السلار لمواصلة جهاده ضد الصليبيين فقد قتل غدراً يوم الخميس 6 محرم 548هـ/1152[2]. فاستغل بلدوين الثالث ذلك لتحقيق هدفه في الاستيلاء على عسقلان[3].

كان لسقوط عسقلان فى يد الصليبيين سنة 548هـ أثره الكبير على نور الدين محمود الذى ركز جهوده للسيطرة على مصر بعد أن باتت هدفاً رئيساً للصليبيين، ومن ثم جرد نور الدين حملاته الثلاث على مصر ونجحت حملته الثالثة تحت قيادة أسد الدين شيركوه فى السيطرة عليها سنة 564هـ، وتهلل الناس والخليفة الفاطمى العاضد، وعد ابن الأثير ذلك فتحاً جديداً لمصر وحفظاً لسائر بلاد الشام وغيرها[4]، بل جعله ابن واصل أ جل الفتوح وأعظمها[5].

تولى أسد الدين شيركوه الوزارة للخليفة العاضد، ولكن مدة وزارته القصيرة لم تمكنه من القيام بأعمال ضد الصليبيين الذين كانوا قد أصيبوا بالهلع والخوف من سيطرة شيركوه على مصر فخافواعلى مملكة بيت المقدس وأيقنوا الهلاك، وأدركوا أن بلاد الساحل على شفا جرف هار من المسلمين على حد تعبير ابن واصل[6].

تولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة بمصر للخليفة العاضد عقب وفاة عمه أسد الدين شيركوه، ولم تمر سوى أشهر قليلة على ولايته وإذا بحملة صليبية بينزنطية تتجه لغزو مصر فى

---

(1) أنظر: الاعتبار، ص38-40.

(2) نفسه، ص40،41.

(3) ابن الأثير: الكامل، 188/11 ؛ وانظر: محمد مؤنس: معجم أعلام الحروب الصليبية، ص368.

(4) أنظر: التاريخ الباهر، ص139.

(5) أنظر: مفرج الكروب، 160/1

(6) أنظر: مفرج الكروب، 179/1.

العام 565هـ بعد الإعداد والتخطيط لها فى العام 564هـ. فقد جهز عموري جيشا وأغرى فرسان الاسبتارية بالاشتراك في الحملة بألف رجل، وأصدر مرسوما يقضي بمنح الاسبتارية جزءاً من إيراد مصر ونسب أخرى من دخل أهم المدن المصرية كالفسطاط وتنيس ودمياط والمحلة والإسكندرية عندما تنجح تلك الحملة فى غزو مصر[1].

تحرك الجيش الصليبي البيزنطي من عسقلان إلى مصر ووصل بعد تسعة أيام إلى مدينة الفرما، وقد سبقه الأسطول البيزنطي وهو يعاني من نقص كبير في التموين اللازم للحملة، وفي صفر565هـ/1170م وصلت القوات المتحالفة إلى مدينة دمياط وهم يحملون المنجنيقات والدبابات وآلات الحصار[2].

وجد صلاح الدين نفسه في موقف حرج خاصة بعد أن حصن بلبيس والقاهرة والإسكندرية ظناً منه أن الصليبيين سيتخذون نفس الطريق الذي سلكته الحملات السابقة فلما اتجهت إلى دمياط راسل نور الدين محمود طالباً النجدة منه، وقام حاكم دمياط شمس الخواص بإغلاق مدخل الميناء بالسلاسل الحديدة الثقيلة لتحول دون مرور سفن الأسطول البيزنطي والتي كانت تحاول منع وصول الامدادات القادمة من القاهرة إلى دمياط عبر نهر النيل.كما قام صلاح الدين بإرسال ابن أخيه تقي الدين عمر وخاله شهاب الدين محمود الحارمي وكثير من الأمراء إلى دمياط بالمدد بعد المدد من العساكر والأموال والأسلحة والذخائر، ثم جاء المدد من نور الدين محمود فقد زود صلاح الدين بالمال والرجال والاسلحة والمؤمن، وشدد نور الدين هجماته على الصليبيين في بلاد الشام ليشغلهم عن دمياط، ونجح في امتلاك جزء كبير من مملكة الصليبيين في فلسطين، كما أمد الخليفة العاضد لدين الله صلاح الدين بالمؤن والأقوات والثياب وألف ألف دينار مصرية[3].

وبعد تردد طويل بين القوات الصليبية والبيزنطية بدأ جيشهم يشعر باليأس، وبدا الانقسام يسود بينهم نتيجة لنقص المؤن بين رجال الأسطول البيزنطي، إذ لم يوفر لهم

---

(1) هيفاء عاصم: الفاطميون والغزو الصليبى، ص158.

(2) ابن واصل: مفرج الكروب، 180/1.

(3) ابن الأثير: الكامل، 352،351/11 ؛ وانظر: ابن واصل: مفرج الكروب، 181/1-183 ؛ ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، 7/6 ؛ حجازى سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس فى عهد الملك عمورى الأول، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2014م، ص266-268.

الصليبيون أي مصدر للطعام على الساحل. كما أن الأمطار الغزيرة أغرقت جميع خيام الصليبيين فأضافت عاملاً جديداً من عوامل القلق بين القوات المتحالفة[1].

فطنت قوات صلاح الدين الأيوبي وأهل دمياط إلى خطة استطاعوا بها وضع حد لهذه الحملة وذلك بأخذ قارب صغير وتحميله بالخشب الجاف والقار وأشعلوا فيه النيران وسيروه تجاه الأسطول البيزنطي مستفيدين من سرعة جريان النيل بسبب هبوب الرياح التى حملت القارب الملتهب تجاه الأسطول البيزنطي الراسي عند مصب النهر في البحر المتوسط فاشتعلت النار فيه[2].

لم يعد أمام الصليبيين سوى طلب الصلح بعد أن استطاعت القوات المدافعة عن دمياط من إحراق مناجيق الصليبيين ونهب الآتهم وقتل الكثير من جنودهم[3]. لذا قرر الصليبيون والبيزنطيين رفع الحصار عن دمياط، وعاد الصليبيون إلى ممالكهم ليجدوا نور الدين محمود قد خرب بلادهم وأصبحوا كالنعامة التي خرجت تطلب قرنين فرجعت بلاد أذنين على حد قول ابن الأثير[4].

وقد قاد صلاح الدين عدة حملات ضد الصليبيين خلال فترة وزارته لدعم مركزه في مصر بعد فشل الحملة البيزنطينية الصليبية، ففي ربيع الآخر عام 566هـ/1170 خرج صلاح الدين على رأس قواته لمهاجمة قلاع الصليبيين على شواطئ فلسطين فبدأ بحصار قلعة الداروم ثم حاول الاستيلاء على غزة فسار من مصر إلى بلاد الفرنج فأغار على أعمال عسقلان والرملة وهجم على ربط غزة ونهبه، والتقى بعمورى الذى هزم وأفلت من الأسر، وبنى صلاح الدين عدداً كبيراً من السفن وحملها على ظهور الجمال عبر صحراء سيناء حتى خليج العقبة وهنالك جمع قطع المراكب وألقاها في البحر حاصر أيلة براً وبحراً في ربيع الآخر 566هـ/1170م حتى سقطت في يده واقتاد رجال حاميتها إلى القاهرة[5]، وما كان على

---

(1) هيفاء عاصم: الفاطميون والغزو الصليبى، ص159.

(2) نفس المرجع والمكان والصفحة.

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة، 1979م، ص45.

(4) ابن الأثير: الكامل، 352/11 ؛ التاريخ الباهر، ص144 ؛ وانظر: حجازى سليمان: السياسة الخارجية لمملكة بيت المقدس، ص281،282.

(5) ابن الأثير: الكامل، 365/11.

الصليبيين إلا أن يوزعوا قواتهم بين الشمال لمواجهة نور الدين محمود والجنوب لمواجهة صلاح الدين وظل الأمر على هذا الحال حتى سقطت الخلافة الفاطمية دون أن ينتطح فيها عنزان على حد قول ابن الأثير[1].

[1] أنظر: الكامل، 9/111.